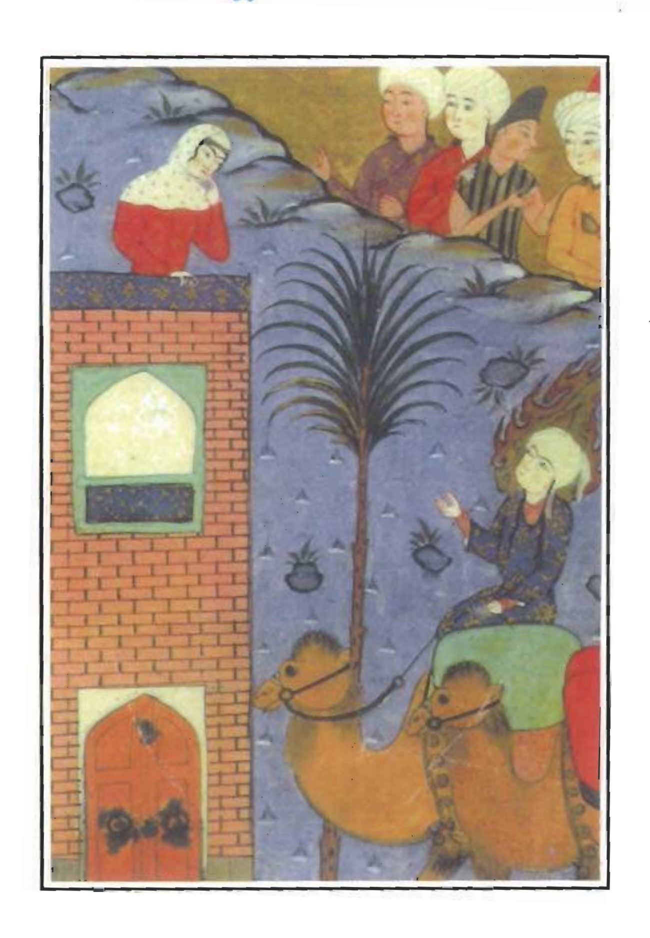
منصور فهمي

أحوال المرأة في الإسلام



منشورات الجمل

منصور فهمي

أحوال المرأة في الاسلام

سلسلة دراسات اسلامية –١–

باشراف

منى نجّار

منصور فهمي

أحوال المرأة في الاسلام

ترجمة : رفيدة مقدادي

مراجعة : هاشم صالح

منشورات الجمل

تمهيد
وضع المرأة في عرف وتطور الفكر الاسلامي

غاية البحث هذا هو وضع المرأة في الاسلام.

فخاصية حياة المرأة المُسلمة أذهلت الأوربيين منذ وقت طويل. فكتب الادب تصف خيبة أمل المطلقات. وحياة الحريم. واما علماء العِراقة فانهم يُصورون النساء بالجاهلات، المخبولات والمستعبدات لشهوات الرجل، بينما يُصدم المسافر الأوربي الذي زار الشرق المسلم بالوضع المؤلم للمرأة.

أثناء غزوته لمصر خاطب بونابرت جنوده قائلاً: "في مصر تختلف معاملة الرجال لنسائهم عن معاملتنا لهنّ"[1].

والذي يذهل فعلا في وضع المرأة المسلمة هو العُزلة المفروضة عليها. من هنا، أهمية الدراسات المكرّسة لدراسة العزلة ومن ناحية أخرى فان موضوع تحرير المرأة هو موضوع الساعة في البلاد الاسلامية المتقدمة. فقد شعر المسلمون بالحاجة لاصلاح السلوك والاوضاع الاجتماعية في حياتهم. ومن ضمن هذا الاصلاح إعطاء الأولوية لمصير المرأة.

واضافة لأهمية موضوع الساعة، فان عملنا هذا يمثل اهتماما تاريخياً: فالبحث الذي قمنا به يؤكد ان ظاهرة عزل النساء لم تكن فقط بسبب العامل الديني بل هي أيضاً نتيجة السلوك الاجتماعي والفروقات الطبقية.

أذن – مع أخذ معطيات تعقّد الأسباب التي حددت وضع

المرأة المسلمة – كان علينا تفحص الاسئلة المختلفة في الظاهر ولكن المرتبطة بصميم موضوعنا هذا. الدين، القوانين، التقاليد، كل هذه العوامل متعلقة في بعضها. ولهذا السبب كان علينا ان نصرّ على ذكر عدّة مواضيع قد تبدو غريبة أو لا علاقة لها بموضوع الاطروحة هذه. وهكذا تكلمنا مطولاً عن زوجات محمد لأنها كانت ذات صدى في مجال القانون وأثرت على سلوك الناس وتقاليدهم: فذهنية التقليد التي شجعت أوائل المسلمين المتحمسين للقرآن، دفعتهم ان يتبعوا حرفيا امثولة النبي. أي في سيرته وتصرفاته التي أعتبرت موسومة بدمغة إلهية. وكذلك سلوك محمد تجاه زوجاته أعتبر أيضاً كمثل تقتدي به الأجيال القادمة. وهكذا فان فكرة الثبات المقدسة المدعَّمة بفكرة الألوهية، بسبب الضغط الذي مارسته على الضمير، قد أبطأت مسيرة التطور الاخلاقي.

وهذا البحث، بالنسبة لنا، هو مناسبة للاشارة الى التأثيرات الايجابية التي أثرت على دراستنا العلمية: وُلدت مسلماً، ونشأت في وسط مسلم وبعدها جئت إلى باريس لاتمام دراستي. وفي باريس، وتحت إشراف الاستاذ القدير ليفي–برول Mr. Levy Bruhl, اكتسبت المناهج الضرورية للبحث الدقيق. وبحثنا هذا يتوخى الحقيقة ولاشيء آخر.

وقد يعتب البعض من أهلنا – من دون شك لهذه الذهنية النقدية– هؤلاء المسلمون الذين يحفظون احتراما دينيا للتقاليد. ونحن اردنا ان نكون صادقين في عملنا رغم احساسنا بالتمزق من فكرة جرح أو أذى الضمير المقصود لهؤلاء العزيزين علينا.

ومع ذلك يكفي ان نُفكر ان الحتمية غير موجودة في الشخصية الانسانية وان كلّ شيء قابل للتغير حسب الظروف المجتمعة.

فنحن في الحقيقة لا نملك الماضي، وانما هو بالاحرى مُلك الاسباب المختلفة التي ساهمت في خلقه، ولهذا آمل من آهلنا واصدقائنا ان لا يستاءوا منّا وان لايثير عملنا هذا ابتسامات السخرية والتعليقات اللاذعة بسبب غرابة دراستنا المطبَّقة على بعض التقاليد والمؤسسات. فلا مبرر للتهكم أو للغضب الذي ان دلّ على شيء فهو يدلّ على عقلية ضيقة أو مُغلقة. فالعالم يتجاهل هؤلاء لأنه يبحث عن الحقيقة. فهل هناك من شعب يخلو من تقاليد شاذة او غريبة، ان حكمنا عليها من وجهة نظر عصرية او حديثة؟

من خلال دراسة الوثائق التاريخية استنتجنا الوقائع الضرورية لنمسك بخيط العلاقات بينها. وقد اشرنا الى بعض الصلات التي تربط عادة عزل النساء بنظام العبودية، فالأولى تريد التمييز بين المرأة الحرّة وبين الجارية. وفي كل المؤسسات المختلفة التي تعمقنا في درسها والتي تشكل القاعدة لعملنا، ذُهلنا للصلة النسبية بين هذه المؤسسات. وبالتالي فان هذا البحث ما هو الا «تفاعل داخلي بين عدة عناصر وأسباب» كما يقول العالم م. رابو[٢]، وسيكون الحكم علينا أفضل ان اخذنا بعين الاعتبار هذا المنطلق -تفاعل مُركّب- الذي ينطبق جيداً في علم الاجتماع والذي تم اثباته في بحثنا هذا. فكل قسم يحمل بصمة مجموع المؤسسات التي بنيت على قاعدة واحدة. ومن جهة أخرى، كان علينا في المقدمة ان نجمع بعض المعطيات

عن وضع المرأة العربية قبل الاسلام. فسلوك قدماء العرب لعب دوراً في تكوّن المؤسسات الاسلامية.

هذه اللمحة الافتتاحية تسمح لنا بان نتعقب، وباهتمام كبير، الانحطاط المتزايد للمرأة المسلمة الذي لم يستطع النظام النظري المتضمَّن في القرآن من أجل حمايتها ان يمنعه.

وان نذكر سني الدراسة في السوربون وذكرياتنا الحلوة في الحي اللاتيني والانتظام المفيد الذي خلق منا عقولاً متفتحة فاننا ننتهز الفرصة لنقدم خالص شكرنا وتقديرنا للجامعة المصرية، والى سموّ الأمير أحمد فؤاد الذي شجعنا كثيراً، وأرتن باشا، والبروفسور ماسبيرو Maspero الذي عرّفنا إلى البروفسور ليفي برول الذي أظهر اهتماما كبيرا بعملنا.

ولقد اشرنا سابقا للتأثير الايجابي الذي مارسه ليفي برول على تطورنا العلمي ولهذا نحن له شاكرون. وشكرا أيضا للسيد Picaet الذي اهتم في الماضي في عملنا لنيل الدبلوم.

وأخيراً لا ننسى البروفسور Snouck-Hurgronje المستشرق الهولندي اللامع لنصائحه المفيدة أثناء اقامتنا في Leyde وعرفاننا بالجميل لمكتبة لهذه البلدة.

منصور فهمي
(باريس ١٩١٣)

الهوامش:

(١) مراسلات نابليون الجزء الاول ص. ١٩٢ – ١٨٣

(٢) رابو: التحويل والخبرة ص. ١٠ Alcan, Paris 1912 Et. Rabaud

المقدمة

وضع المرأة عند العرب قبل الاسلام

ان الرجوع إلى تاريخ العرب ما قبل الاسلام هو للبحث عن دلائل متعلقة بوضع المرأة وإسهام للتنوير عن وضعها في الازمنة بعد الاسلام، وبكلمة أخرى، ربط الماضي بالحاضر بتلك الاستمرارية غير المرئية التي توحدهما. وأخيراً ان الرجوع الى الماضي هو لتأكيد واثبات مايقوله ليفي برول: "ان العادات المتأصلة في أفكارنا وعواطفنا، وآلاف الروابط غير المحسوسة التي تربطنا بماض نعتقد انه انتهى، هذه العادات شئنا ام أبينا تجعلنا دائماً نصُبّ النبيذ الجديد في الاقداح القديمة ونضع الافكار الجديدة في البراويز القديمة"[1].

اذا ما عدنا في الزمن الى الوراء بقدر ما تسمح لنا الوثائق بذلك وجدنا ان الكتب المقدسة، وكتب الشعر، والأمثلة والأساطير وحصيلة الدراسات الفلسفية تمكننا من تحديد مصير المرأة في المجتمع العربي الذي وُلد فيه الدين الاسلامي، حيث شيْد وتبلور؛ "فتاريخ ماقبل الاسلام هو تاريخ تمهيدي، عبارة عن رواق أو مدخل إلى زمن محمد وخلفائه"[2]. وان يبدو الاسلام ثورة احيانا، لاغيا بعض العادات أو بانياً مؤسسات جديدة في المجتمع الذي وُلد فيه فانه يُؤكد بجلاء، أن بين الاختلافات والمعارضات وجود عدد كبير من السمات المشتركة لتأمين الاستمرارية بين العادات العربية والمؤسسات الاسلامية.

فالعمل الثوري الذي غيّر الجزيرة العربية بمجيء محمد يكشف عن اتجاهين: الاول هو الرغبة في تدمير الماضي كله والثاني هو الرغبة في الحفاظ على الشواهد.

هذه النزعة الثنائية تركت دمغة حتمية على الاعمال التي تبدو لأول وهلة، انها حدثت فجأة. ولكن العادات العربية كانت نفسها مختلفة ومتباينة حسب الحقبة الزمنية من تاريخ العرب القديم، أو المناطق التي سكنتها القبائل وحسب الطبقات الاجتماعية.

يروي التاريخ لنا تقاليداً، عادات متغيرة مُشوهة ومغمورة، فتظهر لنا متناقضة؛ ولكن هذا لا يدهشنا ان تذكرنا ان الجزيرة العربية الصحراوية القديمة كانت ملتقى للحضارات القديمة. فاسماعيل، مثلا، الذي تاه في الصحارى العربية، والملكة سبأ التي تذكر الاساطير علاقاتها مع الملك سليمان، ومجوس الفرس، وجيوش الحبشة، كل هؤلاء ما كانوا إلا صدى بعيداً يبرهن على ان الجزيرة العربية لم تكن معزولة عن بقية العالم القديم.

وفيما يتعلق بموضوعنا هذا، تستطيع الاساطير القديمة ان تلقي الضوء على مفهوم فكرة العائلة عند العرب القدماء أو مفهوم المؤرخين لها.

تصف الاساطير، في تاريخ العرب، وادي مكة، مهداً بدائياً للسلالة العربية، واسماعيل ابن ابراهيم هو الجد الأول لهذه السلالة ورواية زواج اسماعيل وحياته العائلية تعطينا صورة عن العائلة العربية القديمة، على الأقل في ذهنية مؤرخي الاسلام[٣].

ذهب ابراهيم في زيارة لابنه اسماعيل بعد مرور سنة على زواجه. وعند وصوله باب منزل ابنه يلتقي بامرأة. "مَن أنت؟" سأل ابراهيم. "انني امرأة اسماعيل" اجابت المرأة. سألها "أين اسماعيل؟" قالت "ذهب الى الصيد" قال ابراهيم "انني ضائع وجائع هل لكِ ان تطعميني؟" اجابت امرأة اسماعيل "هذه بلد صحراوية وليس عندي ما أُطعمك" لم يكن ابراهيم جائعاً وانما راد ان يمتحن زوجة ابنه وقبل ان يغادر المكان قال لزوجة ابنه: "انني ذاهب، لكن اخبري زوجك عند رجوعه بزيارتي وصفي له ملامح شخصي وقولي له انني اطلب منه ان يغيّر عتبة باب بيته". فهم اسماعيل مغزى نصيحة والده ابراهيم وطلّق امرأته وتزوج امرأة ثانية- ابنة المدحذج. وبعد زمن قصير يرجع ابراهيم البطريرك الى منزل ابنه فرأى امرأة جميلة "مَن أنت؟" سألَ فأجابت: "انا امرأة اسماعيل" "اين اسماعيل؟" سألَ أجابت "ذهب الى الصيد" اراد ابراهيم ان يمتحنها كما فعل مع الزوجة الأولى فطلب منها ان تطعمه.

جلبت امرأة اسماعيل الحليب، اللحمة والتمور، واعتذرت عن عدم وجود الخبز. أكل ابراهيم وبارك الطعام المُقدم له متمنيا وفرة الاصناف الثلاثة في المنطقة. وعند انتهائه، دعته زوجة اسماعيل لأن يغسل لحيته ورأسه المليء بالغبار.

غادر ابراهيم مسرورا وقال لزوج ابنه: "صفي لزوجك ملامح شخصي وقولي له بالنيابة عني، ان عتبة باب البيت صالحة وجميلة" فهم اسماعيل كلمات ابيه وعاش حياة سعيدة مع زوجته التي انجبت كثيرا من الاطفال فأداموا ذريته.

هذه الاسطورة التي ترجع الى تاريخ قديم جدا، تُمثل في

جوهرها عنصرين متواجدين في سلوك وتقاليد العرب القدماء، فمن ناحية تُمثل سلطة رب العائلة على زوجته ومن ناحية ثانية، وبرغم هذه السلطة، فان دور المرأة الاجتماعي لم يُلغ بسبب هذه السلطة فدورها موجود اذ كانت تستقبل الضيف، تتكلم وتبحث وتتصرف في غياب زوجها.

يُشير تاريخ الازمنة القديمة في كل مكان، ان رب العائلة هو السيد المطلق الذي أمام سلطته يخضع له جميع افراد العائلة من النساء والاطفال. ولا شك ان سلطة الأب هذه قد أنقصت من شأن المرأة، لأن الأب كان هو الذي يحسم القرار في زواج ابنته(٤).

فالزوج هو الذي يهيمن، وسُلطته، لأنه رب البيت، لاتعرف حدوداً إلا عواطفه وحُسن معاملته. والأكثر من ذلك فان المرأة، مبدئياً، أزيحت وحلّ محلها الوارثون الذكور، وفيما بعد جاء الاسلام وأعطاها حصتها من الميراث -قسماً منه-.

على الرغم من وضعها المتدني، نظريا، فان المرأة كان لها وجود، كانت تتكلم، تُفكر وتتصرف. يشهد التاريخ بعدد من الوقائع التي تذكر تفوق ونشاط المرأة العربية القديمة. فكانت تشارك في الغزوات(٥) وتعمل في التجارة(٦) ولها الحرية بان تعتنق الدين الذي يناسبها دون ان تتبع ارادة زوجها سلبيا(٧). وان قارنا دور المرأة المزدوج في تاريخ العرب القديم ودور المرأة الآن في المجتمع الاسلامي، يمكننا ان نقول مع رينان بأن "المرأة العربية في زمن محمد لاتشبه مطلقا هذا الكائن الغبي الذي يسكن قصور الحريم في عهد العثمانيين"(٨).

كانت المرأة العربية القديمة جميلة لأن دورها كان فعالاً،

إيجابياً. كانت تعيش.

فيما بعد جاء الاسلام[٩]، بمؤسساته المختلفة، وقوانينه التيوقراطية والعواقب التي اسفرت عنها، جاء وغيّر المفاهيم والسلوك وهكذا شُلّت حركة المرأة.

وعلى الرغم من ان محمداً اراد حمايتها إلا ان الاسلام ساهم في انحطاط المرأة. هذه الحقيقة التي تبدو متناقضة لها ما يُفسرها. فالمرأة في الأزمنة القديمة كانت محمية الرجل وكانت تعتبر في نفس الوقت أدنى منه؛ ولكن عندما يكون الرجل هو رب العائلة او البطريريك، فان المرأة التي هي أُم اولاده كانت تستطيع ان تظهر ان صح القول، ملكة البيت العائلي.

يحميها الرجل ويحترمها[١٠] في آن واحد، والأكثر من ذلك لم يكن الرجل يُقصّر في تنظيم وضع شريكته -المالي- حسب عواطفه نحوها.

ولكن عندما تحوّل المجتمع العربي من نظام ابوي الى نظام ملكي، حيث أعطى الحاكم نفسه مُهمّة نشر العدالة حسب قوانين ثابتة وصارمة أو صادرة ومفروضة من الله، وجدت المرأة نفسها مُجبرة على بعض الواجبات التي لم تستطع ان تحلم، حتى مجرد حلم بالتخلص منها.

فقبل مجيء الاسلام، كانت المرأة خاضعة لسلطة الأب أو الابن أو الزوج، وهذه السلطة، كما قلت سابقاً، كانت تُلطّفها المحبة والعاطفة. أما الآن، ومع الاسلام، فقد وجدت المرأة نفسها خاضعة لسلطة الله، الله العادل، الذي حسب عدالته الفائقة، راح يصفع المرأة بالدونية.

فالمرأة قبل الاسلام هي غير المرأة بعده. فالأولى كانت تلعب

دوراً اجتماعيا، بينما الثانية اصبح دورها محدوداً في بيت العائلة. وبالغ بعض المسلمين الاخلاقيين في هذا الدور بقولهم ان البيت يجب ان يكون عمل المرأة الوحيد وان عليها ان تنزوي فيه.

المرأة عند العرب القدماء، كانت مرتبطة عاطفيا بعائلتها اكثر من عائلة زوجها، وبالنسبة لها فان مكانة الأخ هي أهمّ عاطفياً من الزوج.

المثل السائر يفسر هذه الظاهرة بوضوح: :موت الأخ لايُعوّض، فهو ليس كالزوج الذي يمكن ايجاده أو الطفل الذي تمكن ولادته"(١١).

ربما كانت هذه السمة المّميزة هي إحدى مخلفات نظام الزواج اللُحمي، الذي انتقل فيما بعد الى الاسلام. هذه الطبيعة البطريركية لم تستوعب ابداً تلك العاطفة التي قد تستطيع اقتلاع امرأة من الحنان المقتصر على العائلة فقط. نقرأ، في كتاب الأغاني، قصة المحارب الوسيم – من قبيلة يشكر – الذي في غزوة ضد قبيلة تميم، خطف فتاة شابة نبيلة؛ وذهب عم الفتاة يطالب المحارب باسترجاعها لقاء فدية. أعطى المحارب الخيار للفتاة الاسيرة أما ان تبقى معه او تلتحق بعائلتها. واختارت الفتاة المحارب الوسيم الذي سرق قلبها.

رجع عم الفتاة الاسيرة الجميلة الى عشيرته ساخطاً من ضعف الجنس الذي يقبل هذا الاختيار. وتملّكه الغضب فأمر بدفن ابنتيه الصغيريتين وحلف نفس المصير ان جاءته ابنة ثالثة أو رابعة في المستقبل. فالواقع ان اعتماد المرأة على عائلتها على حساب –ضرر– علاقاتها الزوجية كان يضمن لها الحماية ضد

تعسف الزوج. فسلوك الزوج اتجاه زوجته كان يتحدد من خلال علاقته مع اهلها. اذ كان يخشى سلطة اهلها، وقوتهم أو ضعفهم كانت تفرض عليه موقفاً تجاه زوجته[١٢] وقد لزم مرور وقت طويل لكي يخف ارتباط المرأة بقبيلتها، وتقوى علاقتها بزوجها.

هذه العقلية، وان خفت مع مرور الزمن، الا انها انتقلت من المجتمعات الابوية الى المجتمعات الملكية في الاسلام، مع سمات متعددة للاستمرارية.

أما الطلاق أو حلّ الزواج، فكان يتم بطرق متعددة: تشير بعض الوثائق ان المرأة العربية كانت تستطيع ان تطلّق زوجها[١٣] وبعضها الآخر يقول ان الزوج وحده له الحق بأن يطلق زوجته وانه احياناً كان يستغل هذا الحق. ولكن في بعض الاحيان تصف لنا كتب الأدب بان المرأة كانت سيدة نفسها، وتختار زوجها، و لها الحق بان تهجره عندما يناسبها ذلك.

وإذا كانت المرأة العربية القديمة قاصرة أمام سلطة الرجل إلا انها كانت لها الكفاءة ان تتحلى بشخصية تمكنها ان تستفيد من وسطها الاجتماعي.

نظرياً، أراد محمد ان ينهض بشأن المرأة، هذه التي بمفاتنها، أثرت على احساسه الشاعري، إلا ان الاسلام على نقيض نواياه حطّ من مكانة المرأة. صحيح ان الاسلام، حمى النساء من تعسف وظلم الرجل، ولكنه خنقهن بجعل تبادل العلاقات بينهن وبين المجتمع صعباً جداً والنتيجة كانت انه انتزع منهن الوسائل نفسها لكي يستفدن من حمايته.

أما ظاهرة هذه العُزلة الشاذة التي ساهمت كثيرا في انحطاط

سلوك المسلمين، فلا نستطيع كتابة تاريخها بشكل جدّ مرض.

تشير بعض الوثائق، على الأقل في بعض المناطق، ان استعمال الحجاب لم يكن معروفا او بعضها بالعكس يُشير ان عادة استعمال الحجاب يرجع الى حقبة قديمة من الزمن. وفي هذا الصدد يقول المشنا " ان طريقة التدثر –التحجب– التي لا تطابق الطريقة العربية لا تستحق بأن تسمّى بـ«عملية التحجب» [١٤]". واستعمال الحجاب لم يكن شاملاً، ولدينا الوثائق التي تشير بالتأكيد الى ان النساء في تلك الحقبة الزمنية وفي مجتمع محمد لم يخضعن لاستعمال الحجاب. ومن دون شك فان عادة الحجاب اخذت، مع مرور الزمن، تُعمّم وتوطد مع تقدم الاسلام.

في كل مكان حيث تأكدنا من عادة الحجاب في تاريخ سلوك المرأة العربية أو المرأة المسلمة، تأكدنا ايضاً من ان الجاريات –العبدات– كن مستبعدات من استعماله وان شرف استعماله كان محفوظا للطبقات الراقية، توجد هنا علاقة بين مسألة الطبقات الاجتماعية ومسألة العزلة (أي عزل المرأة)، وسنرى فيما بعد الوثائق التي تبرهن على ذلك.

ونُضيف انه من الصعب علينا استقراء اصل هذه العادة. فهي، كمنشأ كل الظواهر الاجتماعية تقريبا، دُفنت في ظلام الزمن. ومع هذا، نستطيع ان نُقدم الفرضية التالية. في مجتمع العرب القدماء، غالباً ما كانت تتكرر الحروب بين القبائل وكانت المرأة تُخطف كغنيمة ثمينة، فكان على الرجل ان ينتبه ويحترس لحمايتها. فكان يضعها في ملجأ محصن صعب الوصول اليه من قبل العدو. فكان يغلق عليها ليوفر لها حماية

أفضل– وهناك اسباب فلسفية لامجال لذكرها هنا تؤكد هذه الفرضية.

من ناحية ثانية، فان الجاريات، بطبيعة وضعهن كُنّ مُجبرات على القيام بأخسّ الاعمال، أما الأُخريات الحرّات فكنّ معفيات من هذه الاعمال، بفضل وجود الجاريات اللاتي كن على اتصال بالعالم الخارجي وحارسات الخيم.

وهكذا، وُلدت فكرة عزل النساء من جراء المفاهيم الحربية للقبائل، وتوطدت مع الاسلام، وتطورت في تلك الأوساط التي كانت عقليتها مهيأة لأن ترى في المرأة شخصية سفلية ومنبعاً للدونية. في بداية أيام المسيحية، تشكلت الاسطورة ذات الاصل المسيحي والتي تعممت –لسوء حظ المرأة– في البلاد المسيحية التي بدورها هيمن عليها الاسلام[١٥].

وهذا ملخص الاسطورة:

يغادر أرخيليدس وهو شاب في مقتبل العمر، مدينة القسطنطينية الى مدينة اخرى (بيروت أو الاسكندرية) ليلتحق بالدير حيث يريد ان يمضي حياته كراهب. وقد حلف هذا الشاب الراهب ان لايرى امرأة في حياته. وتعرف أُمه بالصدفة اين تجده بعد فترة انقطاع اخباره عنها. تصل الأم الى الدير وتطلب من بواب الدير ان يأذن لها بالتكلم مع ابنها الراهب اخيليدس. يرفض الراهب ان يرى أمه لأنه نذر ان لايرى امرأة. تصرّ الأم على رؤية ابنها ويعد الراهب ان يستقبلها حالما ينتهي من صلاته. ويترك البواب الراهب لكي ينهي صلاته ولكن عندما يرجع اليه يجده جثة هامدة. تدخل الأم، وعندما ترى جثة ابنها، تموت بدورها.

لا شك ان نذر الراهب ان لايرى امرأة في حياته هو نتيجة الاحتقار للمرأة الذي نجده مكرراً في الادب المسيحي القديم والذي يُفسر لسببين:

١ – ان روايات العهد القديم – التوراة تنسب الى حواء اصل الخطيئة في تاريخ البشرية.

٢– النزعات التقشفية التي كانت منتشرة بين اوائل المسيحين والتي كانت عدائية للعواطف أو الغرامية التي تلهمها المرأة.

وأخيراً فيما بعد، أي بعد انتصار الفتوحات الاسلامية ذبلت شخصية المرأة العربية النشيطة وتلاشت قيمة وزنها الاجتماعي. ان المؤسسات ذات المصادر المختلفة، كتعدد الزوجات، والارستقراطية، والتيوقراطية، كل هذه العوامل تضافرت لتساهم في مهانة المرأة التدريجية.

وموضوع بحثنا هو دراسة مجموعة هذه التأثيرات المتضافرة.

الهوامش:

١– انظر: ليفي برول، اخلاق وعلم السلوك ص ١٩١ باريس ١٩٠٧ بالفرنسية Levy-Bruhl, La Moral et la science des moeurs, Paris. 1907

٢– كوسان دوبير سيغال: مقالة حول تاريخ العرب، ١٩٠٢، ج١، ص ٩

٣– المسعودي: مروج الذهب، باريس ج ٣، ص ٩٧

٤– فلهاوزن، ١٨٩٣. وانظر أيضاً البستاني، ترجمة الالياذة. ، القاهرة، مطبعة الهلال، ص ٥٥٩.

٥– وهذه هي حالة خديجة، زوجة محمد، انظر ص ٨.

٦– ابن سعد : الطبقات، ج ٨، ص ٢٣٧.

٧– مجلة كلا العالمين، ديسمبر ١٩٥١، ارنست رينان، محمد وأصول الديانة الاسلامية، ص ١٠٩٥.

٨– ان مصطلحي المحمدية والديانة الاسلامية يدلان على شيئين مختَلفين من وجهة نظرنا. فالأول يدل على عقيدة محمد في نقائها الأولي، والثاني على العكس يدل على مؤسسات عديدة من أصول شتى والتي اتخذت بمرور الزمن هيبة القوانين المقدسة.

٩– انظر كوداري: درس في التاريخ الاسلامي، القاهرة، ١٩١١، ج١، ص٢٦.

١٠– البستاني: مصدر مذكور سابقاً، ص ٢٨٠.

١١– الأغاني، ج ١٩، ص ١٤٣.

١٢– بيرون: النساء العربيات، باريس، فصل ١٦، ص ١٤.

١٣– Mold quaton, fol. 24a, 1.24

١٤– البستاني، مصدر مذكور سابقاً، ص ٢١٤.

١٥– انظر نص هذه الاسطورة التي نشرها السيد فنسينك، الاستاذ في جامعة ليدن.



الفصل الاول
محمد والمرأة

شرّع محمد القوانين للجميع واستثنى نفسه

فبينما يقدم الدين المسيحي بطله يسوع في اطار مقدس وطبيعة فوقية عن البشر، فان الاسلام يقدم نبيه في شكل مختلف. فهو انسان بكل مافي الكلمة من معنى: رجل حسّاس طيب. رجل ذو نزوات وعواطف ورجل اجتماعي من الطراز الاول. لكن محمد، الرجل الذي سنّ القوانين ليخضع نفسه والآخرين لها منح لشخصه بعض الامتيازات. ففي اللحظة التي كان يسترجع وعيه فيها ادرك محمد انه من الصعب عليه ان يلزم نفسه بالقوانين الصادرة عن الله ومع هذا كان عازما كرسول ان يفرض هذه القوانين على الأمة التي اراد تأسيسها، وبسرعة وجد حلاً للمعضلة: احتفظ للرجال المبشرين برسالة سماوية: حق التمتع بامتيازات لاتتمتع بها عامة الناس.

فمحمد الرجل-باعتباره رجلاً كبقية الرجال- لم يتخلَ عن امتيازات الانبياء. هذه الامتيازات ساعدته في تبرير تصرفاته كرجل فمثلاً "اخبرنا محمد بن عمر حدثني اثامة بن زيد الليثي عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلعم لقيني جبريل بقدر فأكلت منها واعطيت قوة اربعين رجل في الجماع"[1] وهذه الامتيازات التي منحها محمد لنفسه عند سنّه القوانين امتدت لتشمل الى حد ما كل فصول القانون. مثل

آخر: فبعد ان نام محمد نوماً عميقاً استيقظ وأدى صلاته دون ان يجدد وضوءه، بينما جميع المؤمنين كانوا ملزمين ان يتوضؤا مجدداً بعد النوم. يقول محمد بهذا الصدد مبررا فعله: " ان عيني تنام ولاينام قلبي ولذلك كان ينام حتى يسمع فحيحه ثم يصلي من غير ان يتوضأ"(٢). وحتى اثناء شهر رمضان كان محمد يسمح لنفسه بأن يداعب زوجته عائشة بينما منع هو العلاقات الجنسية للمؤمنين في شهر الصيام "كان يقبل وهو صائم... سئل عن رجل قبّل امرأته وهو صائم فقال قد أفطر"(٣). ووجدت السنّة تبريراً لتصرف محمد فقالت "ان قُبلات محمد خالية من الشهوة".

طالب محمد الازواج المتعددي الزوجات بالعدالة بين زوجاتهم.

هذه القواعد الدقيقة في المساواة بين الزوجات كانت غايتها الحد او الحصر من تعددية الزوجات. هنا أيضاً لم يتبع محمد هذه القوانين ولم يطبقها على نفسه. فنظرياً مبدأ العدالة بين الزوجات مذكور في القرآن(٤) ولكن عملياً لم يعامل محمد زوجاته -أمهات المؤمنين- على قدم المساواة(٥). فزوجاته أرسلن يوما فاطمة -احدى كريمات محمد- في مهمة حساسة الى أبيها النبي. قالت فاطمة لأبيها: "زوجاتك يطلبن منك ان تعاملهن كمعاملتك لعائشة". كان من الصعب على محمد -الذي كان مغرما كثيراً بعائشة- ان ينحني امام رغبات زوجاته. ألم ينعم الله على محمد مقدما العفو عن كلّ أخطائه التي ارتكبها في منزله مفضلاً زوجةً منهن على الأخريات؟. ومع هذا كان محمدٌ منصفاً شكلياً معهن(٦). فكان يوزع وقته بشكل

عادل بينهن ولكن قلبياً لم يدافع عن نفسه لميله وحبه لعائشة، فواجه ربّه مبرراً موقفه قائلاً: "هذا قسمي في ما أملك ولا تلمني في ما تملك ولا أملك"[٧]. وبعبارة أخرى فإن محمداً سيد وقته وأملاكه يستطيع ان يقسّم وقته وما يملك بالعدل بين زوجاته بينما القلوب هي ملك الله فلا يستطيع اذن ان يسيطر على عواطفه، فهو الذي حدد تعدد الزوجات للآخرين استثنى نفسه من ذلك. فالرجل المسلم لا يحقّ له ان يتزوج اكثر من اربع زوجات. وكل زواج يجب ان يعقد بوجود شهود ودفع المهر للزوجة[٨]. وأما محمد فانه تزوج اكثر من اربعة واعفى نفسه من الشهود والمهر.

وفضلاً عن ذلك فان هذه الامتيازات النبوية لم تكن وقفاً فقط على شخص النبي وانما تعدته الى عائلته[٩]، فزوجات النبي لسن كبقية النساء. "يَا نساءَ النبي لَستُنَّ كأحد من النساء، ان اتقيتُنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقُلنّ قولاً معروفا"

"... وما كان لكم ان تُؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده"[١٠] "يَا نساءَ النبي من يأتِ منكنّ بفحشة مُبيّنة يُضعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنُت منكنّ لله ورسوله وتعمل صلحا نُؤتها أجرها مرّتين واعتدنا لها رزقاً كريماً"[١١].

هوامش:

١ – الطبقات ابن سعد الجزء الثامن ص ١٣٩ Edition de Leyde,

٢ – ابن قتيبة طويل مختلف الحديث ص ٣٠٩ القاهرة

٣- نفس المصدر ص ٣٠٨

٤- "ترجيء من تشاء منهن وتؤوي من تشاء" القرآن سورة ٣٣

٥- الطبقات، ابن سعد، حصن الاسوّة

٦- حصن الاسوّة، طبعة اسطنبول ص ٥٧

٧- القرآن سورة الاحزاب

٨- سراح ابن هشام، طبعة غوتنغن ١٨٦٠ ص ١٥٣

٩- نفس المصدر ص ١٥٣

١٠- نفس المصدر ص ١٥٤

١١- نفس المصدر ص ١٥٤

زيجات محمد

ولنلق الآن نظرة على زيجات النبي ونراقب تصرفه في البيت الزوجي والمشاحنات البيتية فهذه تعطينا صورة دقيقة عن موقفه ونوعية نظرته الى المرأة.

في الخامس والعشرين من عمره وقبل رسالته السماوية وكان مايزال يعمل تاجرا، عقد محمد أول زواج له. تزوج من خديجة الأرملة الثرية التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً؟[١].

في ذلك الوقت كان محمد يعمل لديها مسؤولاً عن اعمالها التجارية وقد سلمته ادارة اربعة جمال[٢].

أُعجبت خديجة بنزاهة محمد وأخلاقه وطلبت منه ان يتزوجها.

أنجبت خديجة ابنتهما فاطمة وأطفالا آخرين –يختلف الرواة في عددهم– ولكنهم لايختلفون بان خديجة كانت الزوجة الوفية المخلصة له.

في سن النُبوّة –اربعون عاما– كان محمد يحب الانفراد بنفسه وغالبا ما كان يذهب الى الوديان البعيدة باحثا عن العزلة. وفي يوم وكان بعيداً عن بيته، تقول الاسطورة، يرى النبي في عزلته الملاك جبريل الذي يحجب عنه الأفق[٣] "وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا انظر في ناحية منها إلا ورأيته".

قلقت خديجة لغياب زوجها الطويل وأرسلت من يبحث عنه. ويرجع محمد الى البيت ويجلس بقرب زوجته متكئا عليها –حتى أتيت خديجة فجلست الى فخذها مصغيا

اليها[٤]، يحدثها عن الرؤية السماوية التي أُنعمت عليه. لم ترغب خديجة في معاكسة زوجها في أفكاره فتذهب لتستشير ابن عمها الذي كان يعتبر ماهرا في تفسير الرؤى. وهذا يُبشرها بمستقبل النبي لمحمد. وهكذا تروي لنا السنة ما جرى بين محمد وخديجة "أي ابن عم أتستطيع ان تخبرني بصاحبك الذي يأتيك"[٥] وفي يوم وبحضور خديجة يرى محمد الرؤية السماوية ويصرخ: "خديجة! هذا هو جبريل"[٦] "تعال يا ابن عمي! –تقول خديجة– وإجلس على ركبتي اليسرى" ويجلس محمد على ركبة خديجة اليسرى. "هل ترى الآن الملاك؟ تسأل خديجة زوجها في صوت رخيم. "نعم يجيب النبي" "غيّر مكانك وإجلس على ركبتي اليمنى؟" تسأل خديجة ويجيب محمد بالايجاب. وهنا تخلع خديجة ثيابها وتلتصق بزوجها الطيب وتسأل "هل ما زلت ترى الملاك؟" وفي هذه المرّة يجيب محمد بالنفي. تبتسم خديجة وتستنج ان رؤية محمد ذات سمة سماوية وليست شيطانية وتقول لزوجها: "قالت يا ابن عم اثبت وإبشر فوالله انه لـمَلك وما هذا بشيطان"[٧].

هذه الاسطورة ان دلت على شيء فهي تدل بوضوح على نظرة الأدب الاسلامي الى العائلة المثالية المبنية على أسس المحبّة والعواطف المتبادلة والمشاركة بين الزوجين. والحقيقة ان النبي كان يذكر خديجة بكثير من الخشوع والقدسية. فهي التي وقفت الى جانبه تقوّي ايمانه المهزوز تعاسة في بداية رسالته. ومحمد العارف للجميل كان يتغنّى بفضائل زوجته النبيلة قائلاً: "اثرتني خديجة عندما كنت فقيراً وخديجة صدقتني

وآمنت بي عندما اتهمني الآخرون بالكذب، وبقيت الى جانبي عندما لعنتني الأمة. وكلما تألمتُ أكثر أحبتني أكثر" والحقيقة ان خديجة تبدو لنا بعيدة كل البعد عن الزوجة الرازحة تحت عبودية رب الأسرة المستبد. فهي الند الكفوء لزوجها تنصح زوجها وترشده أحياناً.

وحرية المرأة تتجلى بوضوح عندما نرى خديجة تخرج مع زوجها بصحبة ابن عمهما الشاب علي[8] للتضرع في الكعبة الى آله محمد الأسمى. كانت خديجة الصديقة المخلصة للنبي في زواج دام خمسة وعشرين عاماً. وموتها سبب ثورة في حياة محمد، فنراه يعقد زيجات عديدة بعد وفاتها، الشيء الذي يدل على تغيّر عميق في شخصه المعنوي وطبيعته.

فالنبي الذي تألم كثيراً إثر موت زوجته الأولى خديجة "كانت أم العيال وربة البيت" [9] كما كان يُسميها، لم يستطيع ان يصبر شهراً واحداً دون زوجة وسريعاً يعقد قرانه على سودة الأرملة العجوز التي لم يكن راضياً عنها وأراد ان يُطلقها في الحال إلا ان سودة كان لها من حدّة الذهن ان استطاعت ان تحتفظ بمكانتها كزوجة للرسول اذ توسلت الى زوجها القديس لكي يدع لها الشرف في ان تبقى زوجته حتى تحمل اسمه في اليوم الآخر. إلا ان محمداً لم يكن مستعداً او راغبا ان يبقيها زوجته لارضائها في اليوم الآخر وهكذا اتفقا على الآتي: مقابل ان تبقى زوجته قبلت سودة ان تتخلى عن حقوقها الزوجية –المغازلة او المضاجعة– لصالح عائشة –زوجة محمد المفضلة. هذا المشهد في الحياة الزوجية للنبي له اهمية في تفسير احد القواعد المذكورة في القرآن: على الزوج ان يحترم العلاقات الزوجية وان يتجنب ما

يستطيع تطليق زوجته وان يحاول بالحسنى حل الاختلافات مع زوجته. ألم يُفضل اتباع المحمدية ان يتبعوا امثولة النبي: اي الحفاظ على الزوجة بدلاً من تطليقها؟ أليس هذا منتهى طيبة المعاملة[١٠].

اذن عائشة هي التي حازت على حب النبي ومغازلته لها.

ومحمد يُبرر تفضيله لعائشة بقوله ان اختياره لها هو من ايحاء ومشيئة الله تعالى. فالملاك جبريل -نقلا عن رواية- عرّف عائشة لمحمد وكانت آنذاك طفلة نائمة في سريرها. قال جبريل: "وان في هذه خلفاً من خديجة"[١١] رواية ثانية تقول ان عائشة ظهرت في أحلام محمد كزوجته في المستقبل. "رأيتك في المنام مرتين"[١٢].

والنبي الذي لم يخف نواياه عن صديقه القديم ابي بكر والد عائشة كان كل مرّة يزور صديقه ابا بكر يظهر تعاطفه نحو الطفلة عائشة وموصيا ابويها بالاعتناء بها. وفي ذات يوم ذهب محمد كعادته الى بيت ابي بكر فوجد عائشة تبكي امام باب منزل ابيها، فسألها محمد عن سبب بكائها وتقول عائشة -التي كان لها من العمر ست سنوات- ان امها ضربتها لأنها وشت أمها لأبيها. تأثر النبي من دموع الطفلة حتى دمعت عيناه وقال لأم عائشة: "ألم أُوصكِ بعائشة ان تحفظيني فيها"[١٣] فوعدت أُم عائشة بألا تنكّد طفلتها عائشة التي فيما بعد لعبت دوراً مهماً في تاريخ المحمدية.

بعد ثلاثين يوماً من زواجه من سودة يطلب محمد يد عائشة من ابيها ابي بكر ليتزوجها فيما بعد. وأبو بكر الذي ابدى دهشته بسبب فارق العمر يقول: "خطب النبي عائشة بنت ابي

بكر وهي صبية فقال أبو بكر الى رسول الله ايتزوج الرجل ابنة أخيه؟ "[١٤] وافق أبو بكر على طلب محمد وفسخ ارتباطاً سابق لابنته مع رجل آخر. "فقال ابو بكر اني كنت اعطيتها مطعما لابنة جبير فدعني حتى استلها منهم"[١٥]. "فكان لعائشة بذلك منزلة عند اهلها وهم لا يشعرون بأمر الله فيها"[١٦]. وتكبر عائشة وهي محاطة بعناية خاصة من قبل ابويها تنتظر اليوم القريب لتأخذ مكانها في بيت النبي. وبعد ثلاث سنوات يذهب محمد الى المدينة حيث يُستقبل بحفاوة وهناك يعقد قرانه على عائشة.

واسم عائشة –الشقراء الصغيرة كما كان يناديها زوجها تحبباً– ملأ صفحات بداية التاريخ الاسلامي اكثر من اي اسم آخر. فجمالها، وشبابها اليافع ونزواتها، بالاضافة الى مكانة ابيها ابو بكر، كل ذلك كان له تأثير كبير على الهيئة التشريعية وعلى مصير الشعوب التي اعتنقت الاسلام. ونقلاً عن السنة فان النبي كان يبدي تسامحا ابوياً نحو زوجته الشابة فكان يتغاضى عن حردها وغضبها الطفولي. فعائشة كانت تحلف بأله ابراهيم ان هي مستاءة من زوجها وان كانت راضية تحلف باله محمد[١٧].

فمحمد، مُشرع القوانين الكبير، كان ينقاد لنزوات وتقلبات عائشة، فكان يعمل جهده ليرضيها فينزل الى مستواها الطفولي، يركض ويلعب معها[١٨] والمثل الآتي يكفي للاشارة الى مدى تأثيرها على القوانين القرآنية. كانت عائشة برفقة زوجها النبي في طريق عودتهما من غزوة عسكرية، وكانت الطريق التي عبروها ممراً قاحلاً جافاً وهناك تفقد عائشة قلادتها ويبدأ مرافقوا النبي بالبحث عنها لأن عائشة أصرّت على ايجاد

القلادة. وطال البحث وأخذ المؤمنون يشعرون بالقلق بسبب قرب موعد الصلاة وتواجدهم في مكان لاماء فيه، وهنا يبادر محمد يطمئن مرافقيه المؤمنين بعد ان طلب الاذن من الله ان يسمح لمرافقيه بالصلاة دون الوضوء. كل هذا لخاطر عائشة وهذه الحادثة هي أصل القاعدة القرآنية التي يُعمل بها في الظروف حيث يتواجد المؤمنون في مكان لاماء فيه[١٩].

وعائشة –في نظر السنة– لها مكانة خاصة تميزها عن بقية زوجات محمد والسبب ان حضورها برفقة محمد ما كان يمنع أو يضايق الملاك جبريل من الظهور على النبي. ومحمد الرجل غاو النساء والعطور كان غالبا يستقبل الوحي السماوي في عزلته مع ابنة ابي بكر: "وكان ينزل عليه الوحي وهو معي"[٢٠].

ولم يمنح الملاك جبريل ابداً شرف ظهوره على النبي عندما كان برفقة زوجته العجوز سودة –الزوجة الثانية– الذي على الارجح ما كان يرى امامه الا شيخوختها.

وعائشة كانت تتباهى لكونها المفضلة من قبل الارادة السماوية وما كانت تُقصّر في اهانة منافساتها زوجات النبي الأخريات ومع هذا وبالرغم من مسايرة محمد لزوجته عائشة والاعتبار الالهي لزوجة رسوله فانه يُقال بان عائشة كانت تذكر وتبكي بحرارة شبابها الضائع في السجن المنزلي ".. بكت حتى تبلّل خمارها"[٢١] نعم كانت تبكي بحرقة كلما تذكرت الآية القرآنية التي فرضت على نساء محمد بان يبقين سجينات البيت وحارسات له. ولكن محمد، وبرغم كل حبّه لعائشة، يعقد زواجه الرابع على حفصة ابنة مساعده عمر[٢٢]. حفصة الأرملة الشابة لم تكن جميلة. إذ يقال ان اباها عمر سعى جاهداً ان يجد

لها زوجاً "قال عمر فاتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة... فلقيت أبا بكر الصديق فقلت ان شئت زوجتك حفصة.."[٢٣] والارجح ان محمد بزواجه من ابنة عمر اراد ان يقوي علاقاته بعمر الرهيب الذي كان ينتظر منه خدمات مهمة.

حياة حفصة لاتهمنا كثيراً بموضوعنا هذا والجدير بالذكر ان محمداً أراد ان يُطلقها ولكن الملاك جبريل أوحى له بان يبقيها لأنها في نظر زوجها كانت مؤمنة صالحة واكثر من ذلك فان أباها عمر "فقال لي (جبريل) ارجع حفصة فانها صوامة قوامة"[٢٤].

في السنة الرابعة للهجرة يعقد النبي زواجه الخامس على الارملة الجميلة أم سلامة. وبعكس حفصة فان أم سلامة تهم موضوعنا كثيراً. اذ هي كانت زوجة مؤمن صالح ومن أشجع جنود النبي. كانت تحب زوجها كثيراً لدرجة انها هاجرت معه الى الحبشة عندما كان اتباع الدين الجديد مضطهدين. أحبت أم سلامة زوجها لدرجة انها عاهدت نفسها بألا تتزوج رجلا آخر من بعده "فتعال اعاهدك ألا تتزوج بعدي ولا أتزوج بعدك"[٢٥] ولكن ابو سلامة الجندي الشجاع يصاب بجروح قاتلة في معركة أُحد وينضم الى قافلة الشهداء في الجنة. يذهب محمد الى بيت أم سلامة معزياً ويطوّل زيارته "ان رسول الله دخل على أم سلامة حين توفي ابو سلم فذكر ما أعطاه الله وما قسم له وما فضله فمازال يذكر الخ..."[٢٦].

أُخذ محمد بجمال أُم سلامة وقال لها وهو يغادر بيتها ان تطلب من الله تعالى في صلاتها ان يخفف من مصابها وان

يجازيها خيراً وهنا تصرخ أم سلامة وتقول ما هي المكافأة التي تجعلني أن انسى أبا سلامة؟ "اللهم أجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها"[٢٧].

لم تشك أم سلامة لحظة واحدة في نوعية المكافأة وما كان مقدراً لها. بعد اربعة أشهر يطلب محمد من أم سلامة ان تتزوجه، والتي رفضت من قبل الزواج من غيره "خطبها ابو بكر فردته ثم خطبهاعمر فردته"[٢٨] ويبدو ان ام سلامة التي لم تكن لها رغبة في ان تصبح واحدة من زوجات رسول الله، تعتذر رافضة بسبب عمرها، ومهمة رعاية أطفالها وأخيرا طبيعتها الغيورة.

لكن النبي لا يقبل هذه الاعذار ويقول لها "أما مسألة العمر فأنا أكبر منك سنّا وأما الغيرة فان الله يزيلها"[٢٩]. وهكذا تصبح أم سلامة الارملة الجميلة، الزوجة الخامسة للرسول والمنافسة الخطيرة لعائشة[٣٠] والتي كثيرا ما سببت وأثارت الغيرة بين زوجات النبي اللواتي كن يعاتبن النبي من جرائها. زواج محمد الخامس لم تمله الارادة السماوية ولكن يجدر بنا ان نذكر هنا شخصية أم سلامة، هذه المرأة النبيلة المحبّة لزوجها والتي بقيت عنيدة بإخلاص لذكرى زوجها الراحل فترد جميع من طلب يدها ولكنها تخضع امام النبي، فما من شك ان شخصية محمد والهالة السماوية المحيطة بها جعلت أم سلامة تضع حدا لترملها.

بعد فترة من الزمن، يبعث النبي من يبحث في الحبشة عن أم حبيبة، هذه المرأة المؤمنة التي هاجرت من مكة الى الحبشة مع زوجها. وهذا كان رجلا ارتيابياً وسكيراً وأتى الاسلام ليضايقه

في ذوقه ومزاجه، ومن اجل ان يتخلص من هذا العائق الديني، غيّر دينه في الحبشة وأصبح مسيحيا بينما بقيت زوجته أم حبيبة على دينها الاسلام-الايمان الجديد للعرب. وبعد قليل من الزمن يموت زوج أم حبيبة من كثرة ادمانه الكحول. ترمّل أم حبيبة وموقف ابيها القوي العدواني تجاه محمد شجعه على الزواج منها ليضمن والدها بان يهتدي الى الدين الجديد[٣١]. فيسرع بارسال مبعوث الى النجاشي -امبراطور الحبشة- لتسهيل عقد زواجه من أم حبيبة. والنجاشي الذي كان على علاقة جيدة مع محمد يلبي رغبته ويدفع بنفسه المهر لأم حبيبة التي تلتحق بزوجها الجديد في المدينة وهي سعيدة جداً لوضعها الجديد.

تاريخ أم حبيبة يثبت لا يةدرجة كانت المرأة حُرّة قبل مجيء الاسلام ان هي قورنت مع المرأة في المجتمع العربي الاسلامي. فهذه الاخيرة كانت مطموسة كلية وراء الزوج، بينما أم حبيبة تبقى على دينها الاسلام وزوجها يرتدّ عنه. وليست أم حبيبة حالة منفردة، ومن جهة أخرى سنثبت فيما بعد، بدراسة موضوع المهر، ان زواج محمد من أم حبيبة أثّرعلى تحديد الحد الأقصى للمهر[٣٢]، إذ ان مؤرخي المحمدية وضعوا في السنة الخامسة للهجرة خاتمة زواج مُميز ذي نتائج كبيرة على عُزلة المرأة. احدى هذه الروايات تخبرنا الآتي: زوّج محمد ابنه المتبّنى زيد ابن الحارث الى الارملة زينب بنت جحش. وفي يوم يذهب النبي لزيارة ابنه المتبنى فتستقبله زوجته برداء يُظهر مفاتنها. يرفض النبي دخول بيت ابنه ويرجع الى منزله في حالة مضطربة. "فاعجبت رسول الله فولي وهو يهمهم بشيء لايكاد

يفهم منه الا ربما أعلن سبحان الله العظيم، سبحان مغيّر القلوب" [٣٣] بعد هذه الزيارة يقرر محمد ان يتزوج زينب بالرغم من العراقيل الاجتماعية التي لاتقبل بالزواج من زوجات الاولاد المتبنّين. فالتقاليد تطابق جوهر ما ورد في القرآن من تفاصيل هذه الرواية وعلى كل حال فانه من الصعب تكوين فكرة دقيقة عما جرى ولكن من المؤكد ان محمد بدا ساذجا في صدقه لأنه يقول ان الله عاتبه لحبه لزينب وهو يتظاهر باللامبالاة. "فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكي لايكون على المؤمنين حَرَج في ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا" [٣٤].

ومن ناحية أخرى فان زيداً أتى الى محمد شاكيا زينب ويريد طلاقها ولكن محمد ينصحه بان يبقيها. وكما ذكرنا سابقا فان الله قرأ قلب محمد واتهمه بأنه يخفي حبه لزينب وهكذا يفشي الله سرّ محمد ويزوجه بزينب وحسب اقوال السنة قالت عائشة بهذا الصدد "..يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ان الله يسارع لك فيما تريد.." [٣٥].

تم زواج محمد بزينب دون مهر أو شهود ودون تصريح من أحد. وما من شك فيه انه كان حقاً فريداً انعمه الله على رسوله وان زينب كانت فخورة باهتمام العناية الالهية بشخصها.

كان لمحمد زيجات أخريات لم يكن لهن تأثيرا مباشرا على المؤسسات الاسلامية. فبعد معركة بدر، يتزوج محمد من ارملة -اسمها ايضا زينب- قُتل زوجها وهو يحارب في جيش النبي. وزينب هذه عاشت مع الرسول حوالي ثمانية أشهر ثم توفيت وكان لها من العمر ثلاثين سنة تقريباً. وبعد معركة مؤتة

يتزوج محمد من الجارية جويرية وبهذه المناسبة يعتق الرسول ابويها. وبعد معركة خيبر يتزوج اليهودية صفية التي كانت واحدة من اسرى الحرب.

وتذكر الروايات ناحية طريفة في شخصية الرسول وكياسته نحو النساء: "انه قدم ركبته للاسيرة الشابة الجميلة صفية لكي تضع قدمها وتمتطي ظهر الجمل المعد لها"(٣٦) صفية الزوجة الجديدة أشعلت نار الغيرة في منزل محمد المتعدد الزوجات.

وحسب الروايات المتناقضة والغامضة التي تقول ان الرسول تزوج من ريحانة التي اختطفت كأسيرة حرب ولكنه ليس من الثابت عن ماهية العلاقة بين محمد وريحانة، البعض يقول انه فعلا تزوجها والأخرون يقولون انها كانت خليلته فقط(٣٧) وفي السنة السابعة للهجرة يتزوج محمد زوجته الاخيرة وكانت تسمى ميمونة. سنرى فيما بعد أهمية هذا الزواج الأخير وتأثيره على الجانب القانوني.

هوامش:

١- نفس المصدر ص ١٥٤
٢- الطبقات ص ١٠
٣- نفس المصدر ص ١٠
٤- نفس المصدر ص ٣٦ والقرآن أيضاً
٥- نفس المصدر الجزء ٨ ص ٥٤
٦- نفس المصدر ص ٤٤
٧- نفس المصدر ص ٥٤
٨- نفس المصدر ص ٤٠
٩- نفس المصدر ص ٤٠

١٠- نفس المصدر ص ٥٤
١١- نفس المصدر ص ٥٥
١٢- الغزالي احياء علوم الدين الجزء ٢ ص ٢٩ القاهرة
١٣- البخاري طبعة بولاق الجزء ١ ص ٥١
١٤- الطبقات الجزء الثامن ص ٤٣ طبعة ليد
١٥- نفس المصدر ص ٥٦
١٦- نفس المصدر ص ٥٧
١٧- نفس المصدر ص ٥٨
١٨- نفس المصدر ص ٦١
١٩- نفس المصدر ص ٦٤
٢٠- نفس المصدر ص ٦٢
٢١- نفس المصدر ص ٦٢
٢٢- نفس المصدر ص ٦٢
٣٤- نفس المصدر ص ٧٢
٣٥- سورة الاحزاب الآية ٣٦
٣٦- حصن الاسوّة، الطبقات الجزء ٨ ص ١٤١
٣٧- الطبقات ابن سعد الجزء ٨ مقالة صفية
٣٨- نفس المصدر ص ٩٣
٢٩- نفس المصدر، ص ٦٢
٢٩- نفس المصدر، ص ٦٦
٣٠- نفس المصدر، ص ٧٠
٣١- انظر فيما بعد دراستنا عن المهر.
٣٢- ابن سعد: الطبقات، ص ٧٢.
٣٣- القرآن: سورة الاحزاب، الآية ٣٧.
٣٤- حصن الأسوة، ص ١٤١.
٣٥- نفس المصدر، مادة صفية
٣٦- انظر فيما بعد.

حياة محمد العائلية

تسع زوجات شكّلن البيت العائلي للرسول. تسع نساء ذوات أعمار مختلفة، ظرف مختلف، وجمال مختلف. والروايات المتلهفة دائما في تتبع سيرة النبي حتى في حياته الحميمة زودتنا ببعض التفاصيل عن حياة النسوة التسع داخل بيوتهن.

سنحاول ان نعطي صورة عن حياتهن ولكن علينا ان لاننسى ان هذه الحكايات لا تملك دقة الحقائق التاريخية إلا انها تعطي فكرة عن البيئة الحياتية التي في نظر المؤمنين كانت المثل الاعلى لأن يقتدوا بها لأنها تمثل الكرامة والوقار. وهؤلاء المؤمنون كانوا يطبقون سيرة حياة الرسول على حياتهم الشخصية إلا ان تطبيقها تطور قليلاً قليلاً خلال القرنين الأولين للهجرة.

أول سمة مميزة في بيت الرسول المتعدد الزوجات كانت عامل الغيرة، غيرة النسوة من بعضهن البعض وغيرة الزوج محمد عليهن.

"قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع إمرأتي لضربته بالسيف غير مُصفح. قال صلعم أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني"[١].

ومرة أخرى وقبل ظهور الارادة السماوية بعزل النساء فاجأ محمد زوجته عائشة بصحبة رجل شاب وتقرأ عائشة الغضب في عيني زوجها فتحاول ان تخفف من غضبه قائلة ان الشاب هو أخوها في الرضاعة إلا ان تفسيرها هذا لم يقلل من غضبه[٢].

"ورأيت الغضب في وجهه..." .

وصلت غيرة محمد على زوجاته لدرجة انه منعهن من الزواج بعد وفاته. وجاءت الآيات القرآنية تمنع زواجهن بعد أن أعرب طلحة بن عبد الله عن رغبته في الزواج من عائشة بعد موت النبي[٣] وعلى أثر هذا القانون الصارم اضطرت زوجات محمد الشابات ان يعشن سنيناً طويلة عيشة ترهب[٤].

ويقال أيضا ان محمد ذهب بعيدا في غيرته بأن طلب من ابن عمه علي ان يقتل القُبطي المبعوث من مصر ليكون في خدمة الخليلة ماريا التي عرضها حاكم مصر على النبي. أتهم القبطي بانه كانت له علاقات جنسية مع ماريا، جارية محمد الجميلة. ولم ينج القبطي من الموت إلا عندما تبين لعلي انه كان مخصيا[٥]. وسنرى فيما بعد كيف ان غيرة النبي أدّت الى نتائج ساهمت بدورها في انحطاط المرأة المسلمة.

الى جانب نوبات الغيرة هذه، علينا ان نبين في شخصية محمد صفات رقيقة، اذ كان يعامل زوجاته بأقصى الرقة حتى في مواجهة المشاجرات والمعارك اليومية المستمرة والتي كانت تهزّ بيت النبي المتعدد الزوجات. فكان على محمد ان يكون الحكم وان يتدخل بدماثته ليخفف من شدة الخلافات المشتعلة بين زوجاته. ففي يوم تعاركت عائشة مع صفية وعيَّرتها بمولدها اليهودي وأخذت –عائشة– تتباها بأبيها أبي بكر صديق محمد وحامي الدين الاسلامي. وعندما علم محمد بهذا العراك – الذي كان يتكرر يوميا دون شك– أخذ يواسي صفية مقترحاً عليها ان ترد على غرور عائشة: "ألا قلت أبي هارون وعمي موسى"[٦].

تسامح الرسول تجاه زوجاته كان فريدا من نوعه. كان يتحمل الكثير من المعارك اليومية التي كانت تفرق بين زوجاته، نعم كان يتحمل الكثير دون اللجوء الى الحسم السريع على الرغم من تملكه سلطة مضاعفة. سلطة الرسول وسلطة الملك. الحادثة التالية تدل كما ذكرنا على تسامحه الكبير: في احدى غزواته العسكرية كان النبي مصطحبا معه زوجتين من زوجاته أم سلام وصفية. وأمضى يوماً كان بالاصل مخصصاً لأم سلامة، أمضاه النبي مع صفية وتغتاظ أم سلامة غضبا لشعورها بالغبن فتخاطب زوجها النبي بالكلمات الآتية: "فقالت: تتحدث مع ابنة اليهودي في يومي وأنت رسول الله"(٧). ويقبل محمد هذه الاهانة دون الرد عليها. وتضع هذه الشتيمة علامة استفهام على سماته النبوية. ومثل آخر على تسامحه وهذه المرة مع زوجته عائشة. فبينما كانا في نقاش حامٍ إذ بعائشة تطعن بجرأة، في صدق كلام رسول الله. ويبعث محمد بحثا عن حماه ابو بكر الصديق ليكون الحكم بينهما. وفي حضور ابي بكر يسأل محمد بلطف زوجته "هل تريدين بحث المشكلة أو ابدأ انا؟" "تستطيع ان تبدأ، تجيب عائشة الحردانة ولكن بشرط ان لا تقول الا الحقيقة" يغضب ابو بكر غضباً كبيراً لسماع كلمات ابنته ويخرج عن دور الحكم ويضرب عائشة على وجهها قائلاً " وهل من الممكن ان يقول النبي غير الحقيقة؟" ولكن محمد يدافع عن زوجته ويقول لابي بكر: "لم نأتك لتتصرف هكذا"(٨) ويتصالح الزوجان.

اذن فالمشاحنات والخصومات بين زوجات محمد كانت احيانا، تصل الى منعطف آخر اي ان يتفقن ويقفن كلهن في

صف واحد ضد الزوج محمد. تحمل النبي هذه الاجواء البيتية بكل صبر فمحمد كانت له عادة ان يزور زوجاته على التوالي بعد صلاة الظهر. وفي أحد الأيام يتأخر اكثر من اللزوم في بيت واحدة منهن لأن هذه ارادت ان يذوق محمد العسل الذي استلمته من والديها. زوجات محمد كن على علم بالسبب البريء الذي أخّر زيارة محمد لهن ولكن الغيرة تغلبت عليهن.

سودة العجوز –التي نعرف جيداً دورها السلبي في بيت محمد– اوعزت الى بقية الزوجات الشابات بالحيلة التالية: كل مرة يقترب محمد من واحدة منهن عليها ان تصده بذريعة ان رائحة فمه كريهة. يستغرب محمد هذا التصرف قائلاً: "ومع هذا لم آكل إلا قليلا من العسل" ربما، تجيب عائشة، "ان النحل أكل زهرا ذا رائحة كريهة". كل زوجة بعد الأخرى راحت تصدّ محمد كلما كان يقترب من احداهن. وفي النهاية اقتنع الرسول ان العسل الذي أكله هو السبب وحلف ان لايذوقه ابداً[٩].

رقة محمد مع زوجاته صارت يُضرب بها المثل. فان اختلفت امرأة مع زوجها، كانت تذكر زوجها بمعاملة محمد لزوجاته، فزوجة عمر بن الخطاب كانت تشتكي من قسوة معاملة زوجها، تخاطبه قائلة "انا اعجب، يا ابن الخطاب، من رفضك النقاش معي ومع هذا فان ابنتك – احدى زوجات النبي– تبحث وتناقش مع زوجها النبي حتى تثير غضبه" "وان ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان"[١٠]. من الارجح ان تعليق زوجة عمر لم يلق اذنا صاغية عند عمر الذي كان يظهر القليل من الاعتبار او التقدير نحو النساء.

ولم يكتف محمد بالمعاملة الرقيقة تجاه زوجاته وإنما تعدى ذلك بأن يهتم باوقات فراغهن وان يُساعد في أعمال المنزل. "قالت عائشة كان النبي في مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة قام الى الصلاة"[11] إلا ان الروايات التي تشهد للنبي بعذوبته ورقته تجاه زوجاته تذكر ايضا انه كان رجلاً خائب الظن في النساء، هو الذي اعطى الكثير من الطيبة اتجاههن انتهى بالشعور بالخيبة.

الهوامش:

١ – البخاري الجزء ٣ ص ٢٠ طبعة بولاق

٢– صحيح مسلم الجزء ١ ص ٤١٦ طبعة بولاق ١٢٩٠. البخاري وغيره.

٣– الطبقات الجزء ٨ ص ١٤٥

٤– حسان بن ثابت

٥– الطبقات الجزء ٨ ص ١٥٥

٦– نفس المصدر ص ٩١

٧– نفس المصدر ص ٦٧

٨– الغزالي احياء.. الجزء ١١ ص ١٩

٩– البخاري الجزء ٣ ص ٢٦٢

١٠ – صحيح مسلم الجزء ١ ص ٤٣٧ طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ

١١ – البخاري الجزء ٣ ص ١٣٣

آراؤه ومواقفه المؤيدة والعدائية نحو المرأة

ان الأحكام أو الآراء التي تنسب الى الرسول فيما يتعلق بالمرأة كان منها المؤيد ومنها العدواني. ومواقف النبي هذه تعكس الافكار السائدة في مختلف الاوساط المسلمة خلال القرنين الاولين للهجرة. لنلق نظرة سريعة على بعض منها.

في أحد الأيام كان محمد مشغولا بنشر العدالة بين الناس وحل مشاكلهم إذ اتته امرأة شاكية قائلة ان زوجها ضربها وتطلب منه العدالة. في مثل هذه الحالة كان محمد يطبق قانون العقوبة بالمثل –شريعة النَّحْل– إلا انه يتردد في ان يعاقب الزوج المتهم بعقاب قاس ويوحي الله الى محمد بتشريع قانون ينتفع منه الرجل: "الرجال قوامون على النساء. يقول القرآن"[١]. وترفض التهمة عن الزوج. وحكم القرآن هذا ما زال يتردد على أفواه المؤمنين ويستعمله الرجال ليثبتوا تفوقهم على النساء وفي لحظة تأمل كان محمد يفكر في حالة المرأة فيتراءى له ان العديد من الرجال برزوا في حياتهم وان القليل من النساء لَمعن[٢]. والذي قاله محمد يذكّر بما قاله الكاهن عضو الاكليروس "بين ألف رجل وجدت واحداً وبين كل النساء لم أجد واحدة". يظهر هنا واضحاً التأثير المسيحي لكن لا شيء يبرهن بالتأكيد ان محمداً قد نطق فعلاً بهذه الكلمات. إلا ان اهمية هذه الكلمات انها تعتبر حديثا اسلامياً اصيلاً.

مثل آخر لنظرة محمد العدائية تجاه النساء انه في عودته من احدى رحلاته الخارقة يقص الرسول على رجاله الخبر الحزين الذي يقول ان الاغلبية الساحقة من النساء متواجدة في

جهنم[٣] ويستغرب اصحاب محمد هذا ويسألون عن السبب ويجيب محمد "لأنهن ناكرات للجميل نحو ازواجهن ولا يعترفن بالمعروف"[٤].

حتى في الحياة اليومية كان محمد يعتبر المرأة كائناً يخشى منه، فينصح الرجل بان لاينفرد مع امرأة وان لايراها إلا برفقة قريب لها. فالنبي الشبق كان يتخوف من انفراد الرجل بالمرأة لأن الشيطان حتما سيتدخل[٥]. ولأنه كان يهاب الاغراء فلقد عبّر عن أفكاره بمثل كلمة تيرتوليان "يا امرأة.. انت باب ابليس"[٦].

وأيضا، ما كان محمد ليثق بالمرأة فلما جاءه واحد من جنوده ليخبره ان زوجته سافرت للحج وحدها وانه هو التحق باحدى الغزوات قال النبي "فقال انطلق فحج مع امرأتك"[٧] ولم يخشَ محمد فقط تدخل الشيطان عندما ينفرد بامرأة بل ذهب بعيداً لأن يهاب تدخل الشيطان حتى عندما يتبادل الرجل النظر مع المرأة. ففي يوم كان محمد يخاطب جمهورا من الناس اتوا اليه لسماع ارشاداته وكان الى جانبه أحد اصحابه، شابا وسيما وبين الجمهور كانت هناك امرأة ذات جمال أخّاذ اتت لتطلب من الرسول نصيحته. ووقعت انظار الشاب على المرأة الجميلة وإذا بمحمد المتيقظ ينتبه الى النظرات المتبادلة: "فأخذ بذقن صاحبه فعدل وجهه عن النظر اليها"[٨].

هذه الحادثة وهي ليست منفردة تشير الى مكانة المرأة. التي كانت أكثر فعالية وأقل انحطاطاً من المرأة المسلمة اليوم، لأنها كانت تنخرط بين الجماهير بحرية وبدون حجاب. ونضيف هنا ان الاساطير في زمن الرسول تخبرنا ان المرأة كانت في وضع

اجتماعي أفضل.

ودونية المرأة برأي محمد تمنعها ان تؤدي بعض الادوار. فعندما علم النبي ان الفرس اختاروا امرأة لتحتل العرش –ابنة كسرى– صرخ محمد قائلاً "لن ينجح شيئ من هؤلاء الذين يقبلون ان تحكمهم امرأة"[٩].

ذكرنا سابقا حوادث الغيرة التي مزقت البيت العائلي للرسول. وحسب تعبير عمر اذا صحّ: "كنَّ يأخذن بعنقه"[١٠] وكن ايضاً يأخذن بأعناق بعضهن البعض. وفي يوم وبعد مشاجرة بين عائشة وزينب فلتت كلمة من فمه وقال "المرأة قاتلة"[١١] وفي مناسبة ثانية أضاف "فاتقوا الدنيا واتقوا النساء".

آراء محمد المؤيدة للمرأة

من ناحية ثانية فان حديث السنة، هذه الموسوعة الكبيرة التي تحتوي على جميع الآراء التي انتشرت في العالم الاسلامي في القرنين الأولين للهجرة، تصوّر محمداً بالرجل الفروسي الأبي، الحامي والمدافع عن النساء. وهكذا كان يسخط عندما يرى الازواج يضربون –كشيء مألوف– زوجاتهم "يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ثم يظلّ يعانقها ولايستحي"[١٢].

وان كان محمد قد صرخ "المرأة قاتلة" فانه قال أيضاً: "عن عبد الله بن عمرو قال الرسول الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[١٣] وان قال لنا ان نتقي النساء فانه اضاف "واستوصوا بالنساء خيرا"[١٤] وان استخف الرسول بمقدرة المرأة على ان تحكم شعبا فانه في نفس الوقت اعترف بكونها "والمرأة راعية

على بيت زوجها وولده"[١٥] ومن جهة ثانية فان إله محمد الذي يبدو متحيزا -في عدة مناسبات- لمصلحة الرجال يظهر في مناسبات اخرى عطوفا نحو النساء. فأم سلامة، احدى زوجات الرسول الجميلات تقول لزوجها: "قالت فما لنا لا نُذكر في القرآن كما تُذكر الرجال"[١٦] وهكذا فان الرسول يصغي الى زوجته وتنزل الآية فيما بعد: "ان الله يقول ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات"[١٧].

محمد الرجل العربي، كان له شغف وحب كبير للاطفال إلا انه وضع المرأة في مرتبة أعلى من الطفل، عندما سأله أصحابه عن كيفية احتفالهم بمجد الرسول في صلواتهم فيجيب محمد "قولوا اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته"[١٨]. وفي مناسبة اخرى قال الرسول "أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله" بدلاً من ان ينفقه على الجهاد المقدس. وقال أيضاً في دفاعه عن حقوق المرأة: "ان احق الشرط ان يوفى به ما استحللتم به الفروج"[١٩].

وهناك رواية أخرى تنسب الكلام الآتي الى محمد: "من يربي طفلتين حتى سن البلوغ فله مكان بجانبي يوم الحساب"[٢٠].

ومتى تُصبح المرأة أُما فانها تتمتع باحترام واجلال لامثيل لهما. فان القينا نظرة على الشرق الاسلامي بكل طبقاته الاجتماعية نجد ان الام محط احترام ديني مقدس. "لي رغبة قوية في الذهاب الى الجهاد -قال هذا مؤمن للرسول- "هل لك أم؟ سأله الرسول، نعم، أجاب الرجل المؤمن "احم قدمها، فالجنة تحت اقدام الامهات"[٢١].

لاشك ان جميع هذه الاقوال تكفي لتبرهن على وجود تراث

آخر يظهر فيه النبي كحامٍ للمرأة. لكن هذه الشواهد هل هي فعلاً أصيلة وهل نطق بها النبي؟ لقد سبق وأن لاحظنا ان ظاهرة التاريخ المقارن تعرض لنا عدّة أمثلة وان الروايات تنسب الى النبي اعداداً كبيرة من الاحاديث والتصرفات التي من المؤكد انه ليس بصاحبها أو قائلها. وهذه -اي الروايات- ان عبرت عن شيء فانها تعبر عن المجتمع الاسلامي في حقبة تأسيسه. وهذه تحتوي على الكثير من التناقضات والاختلافات. حتى في مجتمعنا العصري فان كل فئة اجتماعية لها نظرياتها الخاصة لتبرر طريقها في الحياة. وهكذا خلال القرون الأولى للاسلام كانت وجهات النظر للفئات المختلفة في المجتمع الاسلامي قد وجدت طريقها الى منهج سرد الروايات التي في النهاية انضمت لكتب الصحاح.

الهوامش:

١ – الطبري التفسير الجزء ٥ ص ٣٥–٣٦

٢– البخاري الجزء ٣ ص ٥٦

٣– نفس المصدر ص ٢٣

٤– نفس المصدر ص ٢٣

٥– حصن الاسوّة ص ٣٦٣

٦– Du Cultu Feminarium 1,1 (t.1, p. 126)

٧– مسلم الجزء ١ ص ٣٨٠ طبعة بولاق

٨– البخاري الجزء ٣ ص ١٥٨

٩– حصن الاسوّة ص ٢٠١

١٠ – ابن سعد الطبقات الجزء ٢ ص ٣٧، ١٦

١١ – البخاري

١٢ – البخاري
١٣ – ابن سعد الطبقات الجزء ٨ ص ١٣٨
١٤ – صحيح مسلم الجزء ١ ص ٤٣٠
١٥ – البخاري الجزء ٣ ص ١٩
١٦ – نفس المصدر ص ٢٣
١٧ – حصن الاسوّة ص ١١٧
١٨ – نفس المصدر
١٩ – نفس المصدر
٢٠ – صحيح مسلم الجزء ١ ص ٤٠٠
٢١ – الصحاح، حصن الاسوّة ص ٣٩٦



الفصل الثانى
الحجاب والعزلة

التاريخ الديني للحجاب

منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً انتقد المستشرق الهولندي المعروف الأستاذ سنوك هورنج المغفلين الذين وقعوا في الخطأ الشائع الذي خدع حتى العقول المتفتحة مثل شبرنجر Sprenger.

"كتب العالم الهولندي: ما يلفت النظر ان نرى العلماء الاوربيين يبحثون في القرآن عن الحجج المتعلقة بالحجاب، إذ انهم يستندون على الآية رقم ٥٣ من السورة ٣٢. هذه الآية القرآنية لاتتكلم لا عن الحجاب ولا عن النساء المسلمات. وانما هي في الحقيقة تتكلم فقط عن نساء النبي. والقارىء يذكر هذه القواعد الاستثنائية التي علقنا عليها في الفصل الاول.

قاسم امين، الكاتب المصري العصري، الذي حضّ امته على تحرير المرأة؛ لاحظ هو ايضا ان النبي ميّز بين نسائه ونساء غيره. فشخصيات كداوود وسليمان ومحمد -أي ما يدعى بالطبقة المقدسة- عرفت دائماً ان تحتفظ بامتيازات لها فيما يتعلق بعدد نسائهم وطريقة تصرفاتهن وحياتهن.

أما نحن، فاننا نعتقد ان هناك علاقة متماسكة بين مشكلة عزلة النساء والطبقات الاجتماعية. فالطبقات الغنية في الشرق الاسلامي التي تتباهى بتجميع ما يُطلق عليه الأوروبيون "الحريم" تختلف كثيرا عن الطبقات العاملة. فبصورة عامة في الطبقات العاملة كل رجل له زوجة واحدة تشارك في عمله.

فزوجة العامل لاتقارن بزوجة الغني الذي لاينفك عن تحقيرها لاشباع انانيته.

زوجة العامل، بالعكس حُرّة كزوجها تساهم في العمل وتشارك زوجها في النضال الحياتي المشترك لأنها تعمل الى جانب زوجها لكسب قوتهما.

لندرس الحجاب من وجهة نظر الدين الاسلامي. هنا نستشهد بقول المستشرق هورغرونج الذي لاحظ ان الآية القرآنية رقم ٣٢ تخص فقط زوجات محمد. ولاحظ ايضا ان "الحجاب" الذي فرضه النبي على زوجاته ليس بالضرورة الحجاب المستعمل في البلاد المسلمة. وان الدين الاسلامي لايمنع ابدا ان يُرى وجه المرأة. حتى في اثناء التعبد في فترة الحج فان الدين الاسلامي يتطلب من النساء ان لايغطّين وجوههن أو ايديهن. وتتفق جميع الطوائف الاسلامية على هذا. فعند الشافعيين فانه من الأفضل ان يرى الرجل وجه المرأة قبل الزواج. والنبي نصح رجلاً ان يرى المرأة التي ينوي ان يتزوجها[1] "إذهب فانظر اليها".

ونسأل هنا كيف أمكن لهذه النصوص الدقيقة ان تفقد قيمتها العملية على الأقل في بعض البلاد الاسلامية وكيف استطاعت عزلة النساء ان تصبح صارمة الى مثل هذا الحد؟ وكيف نُفسر تقاليد بعض البلاد المسلمة وبعض الطبقات الاجتماعية التي منعت منعاً باتا سفور وجه المرأة إلا في حضور الاقارب والأهل.

التفسير الوحيد الممكن ادراكه هو متسببات النظام الاجتماعي التي ساهمت في تعليل هذا المنع. وربما، من ناحية

أخرى، التطور الذي أدّى الى تعميم عزلة النساء كان من تأثير القدوة الشخصية للرسول في علاقاته مع زوجاته. هذا على الرغم من ان الآيات القرآنية تتكلم فقط عن نساء النبي ولا تشمل بقية النساء. والجدير بالذكر بأن الآية هذه تطلب من النساء ان يحافظن على زي مُحتشم "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهنّ ذلك أدنى ان يُعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً" (سورة الاحزاب).

وذكرنا سابقاً ان محمداً، لكي يتجنب الاغواء الشيطاني منع الرجل من الانفراد بالمرأة. ومن كل هذه البراهين وُلد عُرف وكبر وتطور في بعض البلاد وترعرع في بعض الطبقات الاجتماعية. بينما في بلاد أُخرى لم يتوطد هذا العرف أو هذا الاستعمال. فهناك بيئات شجّعت على استعمال الحجاب وبيئات أخرى أظهرت مقاومة لاستعماله. ونترك هنا للتحليل التاريخي والاجتماعي ليعطي أسباب هذه الفروقات. وهدفنا ان نستعيد تاريخ النظريات المحمدية التي سيّرت مراسيم المناقب والاخلاق الاسلامية.

وان صدقت بعض الروايات فان عمر –أحد صحابة محمد– هو الذي نصح النبي بان يعزل النساء "وعن أنس قال، قال عمر يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب"[٢]. ورواية أخرى تقول "قالت عائشة كان عمر يقول لرسول الله أحجب نساءك"[٣]. في باديء الأمر تردد محمد في أتخاذ مثل هذا القرار ولكن فيما بعد راح يطبقه.

والأرجح ان رسول الله، تحت ضغط صاحبه عمر، قد صاغ

الأمر الالهي لوضع العراقيل للعلاقات الحرّة بين الرجال والنساء، فالحديث يُبين ان الوحي صدر في السنة الخامسة للهجرة في ليلة زواج النبي من زينب بنت جحش حيث دعا محمد الكثير من اصحابه لحضور حفلة الزواج. وطالت اقامة الضيوف بعد تناول العشاء ومحمد في قرارة نفسه يتمنى ان يظهر المدعوون قليلاً من اللياقة فيغادروا المكان. وإضطر محمد ان يترك عروسه الجديدة ويذهب لزيارة زوجاته. أما الضيوف فبقوا غير مبالين في غرفة زينب الزوجة الجديدة التي كانت منعزلة في إحدى زوايا الغرفة. ويرجع النبي ظانّا انهم اخيرا قد غادروا المكان وعندما يراهم مازالوا هناك يتبادلون اطراف الحديث يلتجيء الى الله كي ينقذه من هذه الورطة ويوحي الله الى رسوله ان يأمر رجاله بمغادرة المكان بعد انتهاء الاحتفال ومنع الرجال من تبادل الحديث مباشرة مع زوجات النبي إلا من وراء ستار يحجب النظر عنهن. هذه الواقعة هي الأكثر قبولا لتفسير إحدى الحكم الالهية التي بنيت عليها نظرية او عقيدة العزلة والحجاب للنساء. ومع ذلك فان الروايات لا تؤكد تفاصيل هذه الحكاية. فرواية أخرى تقول: "وقال آخرون كان ذلك في بيت أم سلمة"(٤) وثانية تقول ان عائشة حضرت حفلة الزواج مع زوجها وضيوفه وانه – اي محمد– صُدم عندما رأى يد أحد المدعوين تلامس يد زوجته(٥) ورواية ثالثة تقول ان التماس عُمر ساهم في الأمر الالهي لعزلة نساء النبي(٦).

الجدير بالذكر اننا لانملك إلا القليل من مصداقية تفاصيل هذه الروايات. والمهم فيها ان الرسول حدّ من حرية زوجاته –أي نسائه فقط وليس بقية النساء بشكل ان هذا العرف كوّن قسماً

من القانون الاستثنائي الذي وطد لمصلحة مقتصرة على الرسول فقط.

ولنترك هذه الاقوال التي تخص زوجات محمد ولنسمع ما يقوله القرآن في سورة الاحزاب "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جَلاَبيبهنّ ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفورا رحيما".

وكتب المعجم تذكر "الجلباب" القريب من "الخمار" و"الملاخ" الرداء أو الازار وهي أسماء ملابس ترتديها المرأة عند خروجها من البيت. والآية القرآنية هذه هي لتمييز المرأة الحرة من الأمة أو من النسوة المنتميات الى طبقة اجتماعية سُفلى. فهؤلاء عند خروجهن من المنزل لا يرتدين الخمار فوق ملابسهن المنزلية. وهي -اي الوصية القرآنية- لاتشمل، على ما يبدو، اية توصية عامة تفرض فيها على النساء ان يحجبن وجوهن. ولهذا فلا داعي هنا للاهتمام بدرس هذا النص لكي نفسر أو نبرر استعمال الحجاب في بعض البلدان الاسلامية. على كل حال فانه من الممكن -لنعترف بذلك- ان نجد هنا البذرة والالتزام بهندام معين حيث انطلقت منه فكرة البذلة النسائية التي تحجب وجه المرأة.

وان كان هذا النص القرآني ليس مقنعاً لاستعمال الحجاب فانه كذلك فيما يتعلق بالتمييز بين الطبقات. فالقرآن عندما وصّى نساء المؤمنين أن يلبسن هنداما خاصا بهن فانه اراد ان يُميزهن عن الأمات وتتفق جميع الروايات على هذه النقطة بالذات[٧] وهناك حادثة أخرى -الجميع متفق عليها ايضاً- تشرح لنا ما حدث لنساء النبي وهي الآتية:

فزوجات النبي، عندما كن يخرجن ليلاً لقضاء حاجتهن، كان يلحق بهن رجال ذوو سمعة سيئة وعلى أثر ذلك تذمرت النسوة واشتكين أمرهن الى الرسول. واعتذر الرجال من تصرفهم البذيء قائلين انهم ظنوا النسوة أمات وليس بالحرات. ولتجنب تكرار هذا الخطأ طلب محمد من النسوة الُحرات ان يميزن انفسهن عن الاخريات بلباس خاص بهن.

وخلاصة القول ان الدين الاسلامي والشريعة لا علاقة لهما (على الأقل مباشرة) في الدعوة الى استعمال الحجاب. فالانظمة التي تلتزم بالحجاب واقعة تحت تأثير التقاليد، هذا اذا امكننا ان نُميّز ونوضح بدقة في العالم الاسلامي بين التقاليد والاديان. وتاريخ الديانة الاسلامية يشهد على صعوبة التمييز بين وجهة نظر اجتماعية ووجهة نظر دينية محضة. فالاسلام هو دين ودنيا إذ نَظّم حياة المؤمنين في أدق التفاصيل ولكن في فترة تطوره التاريخي أُرغم الاسلام على أن يتأقلم مع الضرورات الاجتماعية والأوضاع المتناقضة للواقع الانساني.

وعندما يُسألون عن تبرير استعمال الحجاب يتحصن المسلمون وراء ميثاقهم –الاتفاق أو الاجماع "ووجهة الامام باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج "[٨].

وميثاق المسلمين هذا يتُدرَّع به كجوهر اساسي في الدين ليعطي ثقلاً قانونيا لمؤسسة الاسلام.

وان اعتبرنا الاشياء من وجهة نظر التقاليد ودافعنا عن فكرة الحجاب كنقطة جوهرية في الدين الاسلامي فان ذلك يعني اننا لا نتحدث عن دين قابل للتغير والتطور. فالركيزة هنا هي اجماع المسلمين. ومن المستحسن ان لا نضيّع وقتنا بجدل

عقيم ودائرة مفرغة ولنسمي الاشياء باسمائها ونقول ان الحجاب هو حصيلة التقاليد وليس الدين.

ليس هناك من شك –انه في الربع الاول من السنة الاولى للهجرة ان الحجاب وعزلة النساء لم يكن لهما سبب أو هدف آخر إلا الذي ذكرناه سابقا وهو التمييز بين الطبقات الاجتماعية.

عمر، الخليفة المشهور، يلتقي بامرأة غريبة في بيته، وهذه كانت ترتدي الجلباب فيرتد عمر خارجاً من بيته ولا يجرؤ على الدخول إلا عند خروج المرأة الغريبة. يسأل عمر زوجته من تكون هذه الزائرة فتجيب الزوجة ان الزائرة هي جارية تمتلكها إحدى العائلات. ويثور عمر على اثر هذه الحادثة ويصدر أمره بمنع الجواري من ارتداء ثياب الحرّات: اي لبس الحجاب أو الجلباب الذي يغطي الرأس والوجه.

وأمر الخليفة عمر هذا –الذي صدر في المدينة صدّق على المبدأ الوارد في القرآن وجعله فعالاً. وبدءاً من ذلك التاريخ وضعت النسوة في فئتين: الحرّات والجواري (٩).

الهوامش:

١– صحيح مسلم الجزء ١ ص ٤٠١

٢– حصن الاسوّة ص ١٢٥

٣– البخاري الجزء ٣ ص ١٦٠

٤– تفسير الطبري الجزء ٢ ص ٢٤٠

٥– نفس المصدر الجزء ٢٢ ص ٢٥، طبقات ابن سعد الجزء ٨ ص ١٢٦

٦– الطبري الجزء ٢٢ ص ٢٥ والطبقات الجزء ٨ ص ١٢٥ (التي لاتتفق مع الطبري) انظر البخاري الجزء ٣ ص ١٦٠ (الذي يتفق مع الطبري.)

٧- تفسير الطبري الجزء ٢٢ ص ٣٠، ابن سعد الطبقات الجزء ٨ ص ١٢٦

٨- باغوري -فقه الجزء ٢ ص ١٠٥

٩- حصن الاسوّة ص ٩٤، ويُنسب الى عمر ايضا انه منع الحرّات من الاستحمام في الحمامات العامة بحضور امرأة غير مسلمة.

التاريخ الاجتماعي للحجاب

مع تطور وتقدم الدين الاسلامي في الزمان والمكان، اصبحت الحدود أكثر عمقاً بين الطبقات المختلفة، وأخذ الحجاب والعزل أهمية متزايدة. وعندما فتح الاسلام أراض أخرى، زاد عدد الإماء واصبحت النساء الاحرار تدفع اكثر فاكثر التبعات المزعجة لقاعدة الحجاب والعزل.

في هذا الوقت، فتح الاسلام بلاد فارس والرافدين من جهة، وسورية المحتلة من قبل الرومانيين منذ سبعة قرون من جهة ثانية. ونحو الغرب استطاع الجنرال عمرو بن العاص تحقيق انتصارات سريعة بفتح مصر وبلاد النوبة. وهكذا، وفي حوالي عشرين عاما، توسعت الامبراطورية العربية بشكل كبير وأصبح الفاتحون على صلة بحضارات جديدة. ومع احتفاظهم لأنفسهم بامتيازات الفاتحين، فقد أبقوا على نسائهم في نظام العزل المؤسف لتفريقهن عن باقي النساء.

إن مبدأ الفصل والتفريق الذي جعل منه محمد نظاماً متكاملاً لم يلبث أن اعطى ثماره المرّة. هيبة الحجاب اصبحت سريعاً عامة في الطبقات العليا من المجتمع الاسلامي. إلا أن الطبيعة الانسانية لها مطاليبها وتستطيع أن تعثر على منافذ بالرغم من صرامة الآداب وبالرغم من الشذوذات الاجتماعية التي تبعد لوهلة، الانسان عن الظروف الطبيعية والتوازن المنتظم لحاجياته البيولوجية. وهكذا، فإنَّ المكيين، سكان العاصمة المقدسة للاسلام، لم يتأخروا عن أن يجدوا على لسان أهل الأخبار وسيلة غاية في السهولة للانعتاق من الحجاب

لفترة. فحرصاً على مصالحهم العملية، فإن مدوّن الأخبار الفقيهي، الذي يستشهد به سنوك هورغرونج Hurgronje Snouck يروي أنه في مكة، كانت الفتيات اللاتي ينشدن الزواج، يخرجن مرة الى الطواف بالكعبة لاعطاء الفرصة لرؤيتهن من قبل الرجال الذين يريدون طلب يدهن (١).

ودون شك، فإن من المحتمل أن يكون ذلك من بقايا عادات قديمة حوفظ عليها بالرغم من التطور العام للمجتمع الاسلامي في اتجاه العزل. ومهما يكن، فإن هذه الممارسات التي يحتمل وجودها طيلة القرنين الاول والثاني للهجرة، تلطّف الى حد معين، من مضار تشريع لايتناسب مع مصالح الرجال. إلا أن هذا الملطف لم يلبث أن اضمحل مع تزايد تخفيض رتبة المرأة وكلما ازدادت قساوة الاخلاق التي تصاعدت وتعممت مع الوقت لتشمل كل البلدان التي عرفت الاسلام الاول.

وفي اليمن، في القرن الثالث للهجرة، وعندما بلغ الامام يحيى الهادي أن سكان العاسوم لايحترمون بدقة قواعد الاسلام في حياتهم الجنسية والزوجية، رأى من الضروري أن يفرض على سكان هذه المنطقة قواعد صارمة، فطلب أن ترتدي النساء الحجاب ومنع النساء البدويات من الذهاب إلى السوق مكشوفات الوجه (٢).

في مصر، وفي الحقبة نفسها، نلاحظ مبدأ العزل بكل أبعاده. المؤرخ المصري ابن إياس يخبرنا بأن الفقيه الشافعي قد طلب في وصيته أن تقوم نفيسة، وهي من حفيدات النبي، بالقيام بصلاة الميت عليه. وقد تم احترام وصيته، وقامت نفيسة بالصلاة، ولكن لوحدها مع التابوت معزولة عن الجموع بستارة (٣).

في القرن التاسع للهجرة، اي في الحقبة التي وصل فيها نظام العزل في مصر إلى ذروته، قرر سلطان مصر، منع كل النساء، تحت أي عذر كان، من الخروج باستثناء العاملات في غسل الموتى [٤]. وبذلك أضحينا بعيدين جداً عن الحرية التامة التي تركها محمد للنساء في الصلاة في المسجد والكشف عن وجوههن وأيديهن.

أبحاث فيلولوجية (فقهية لغوية) حول تاريخ الحجاب

كلما ازداد الوضع المأساوي للمرأة سوءاً في العالم الاسلامي، كلما تعقد زي المرأة بتأثير نظام العزل. ففي الأزمنة الأولى للاسلام، وفي وقت كان معظم العرب فيه مازالوا بدواً تتكون قراهم من خيم مزروعة في الصحراء، كان فن الخياطة مهملاً الى حد ما، ولم يكن هناك تقسيم للعمل [٥]، وكان الحائك ينجز العمل كله وحده، ولانستطيع التمييز كثيراً بين ثياب المرأة وثياب الرجل، فمعظم اللباس كان يختصر في ثوب مخاط من قطعة واحدة تحيط بالجسم. بعدها، ومع الفتوحات، أخذ العرب الفاتحون عن الشعوب المهزومة الكثير من ملابسهم والكثير من الترف، ويشير ابن سيده إلى ما أخذوا عن الفرس والرومان [٦].

في اسبانيا، وبشكل خاص في الحقبة الأخيرة لامبراطوريتهم، تبنى العرب قسماً كبيراً جداً من ملابس الفرسان المسيحين كما يشير دوزي [٧]. وأستعير من هذا المؤلف المقطع التالي المتعلق بملابس المرأة: "عندما منع فيليب الثاني على المور [٨] الاسبانيين ارتداء أزيائهم الوطنية قال احد الموريين الذين

استدعاهم مارمول فرانشيسكو نيونيز مولي هذه العبارات: إن زي نسائنا لم يعد مورياً، انه زي الريف كما هو حال كاستيليا. في البلدان الاخرى يختلف المسلمون عنا في هندام الرأس والملبس والاحذية. من يستطيع أن ينكر أن زي نساء المور الافريقيات والنساء التركيات لايختلف تماماً عن الزي الذي ترتديه نساء غرناطة؟ "[٩].

إن التعقيد المتزايد في الملبس، يظهر بوضوح عندما نقارن بضعة الاسماء التي تشير إلى الملابس في زمن محمد والتي حفظتها لنا الادبيات القديمة، مع تلك التي استعملت فيما بعد. وفي قاموسه لأسماء الملابس عند العرب، يتناول دوزي ملابس الرجال والناس مع الاشارة الى اصلها الغريب. لن نتوقف كثيرا عند ذلك، وسنتناول الملابس التي كانت سائدة في القرن الاول للهجرة والتي يتناولها التشريع القرآني والتي تهم موضوع دراستنا حول عزل النساء.

يمكننا أن نجزم، بشكل شبه قاطع، وفقاً لمعرفتنا بالحياة والاخلاق في الفترة التي سبقت محمد بانه لم يكن موجوداً في تلك الحقبة قطعة ملابس غايتها ستر وجه المرأة عن انظار الرجل، ويمكننا ان نوضح هذا التأكيد، بشكل أكثر قطعية عند الحديث عن المجتمع العربي في عهد محمد، والذي طبق قوانينه فيه.

سبق واشرنا، في الفصل السابق الى أن محمداً كان يذهب مع زوجته خديجة وابن عمه الشاب (علي) للصلاة معاً في الكعبة وقد كانت النساء تشارك في الحياة العامة بشكل يشغل الرجال ويثير مخاوف تأثر نسائهم وأطفالهم بالدين الجديد[١٠].

ولم يكن ثمة عوائق تعكر صفو العلاقات الطبيعية في الحياة اليومية بين الجنسين.

من نقطة الانطلاق هذه، ومن هذا الوضع، الذي ليس فيه مايصدم نظرتنا المعاصرة، سننتقل تدريجيا إلى وضع الفصل الجذري بين النساء والرجال.

في البدء، طلب محمد إلى النساء الحرَّات أن يتميزن عن الإماء بارتداء الجلباب، وقد صاغ ذلك في الآية التي أوردناها آنفاً(١١). هذا الجلباب تم وصفه بشكل غير دقيق من قبل رواة الحديث والعلماء، وقد أثار فيما بعد تعارضات لانهاية لها، كانت نتيجتها تعقيد الوضع اكثر، وسمحت باذلال وتحقير المرأة أكثر.

واذا تفحصنا المشكلة باسلوب معمق أكثر، ونقدي أكثر، من الممكن الوصول الى تحديد شكل "الحجاب" هذا وبالتالي تقديم زي المرأة الذي أراده محمد.

كلمة جلباب تعني تحديداً القميص، حسب القاموس وحسب عالم اللغة الجوهري، فهو ملبس خارجي يشبه الشال الكبير أو المعطف ويعطيه اسم "ملحفة".

ابن سيده في المخصص يقول بأن "الجلباب" يعني "الملاءة"، وهي نوع من المعطف يسمى أيضاً "المرط"(١٢).

المرط حسب الجوهري ملبس من خيط مشاقة الحرير يستعمل كغطاء. ابن سيده يستعمل ايضاً هذا التعبير: المرط هو اللباس الذي يستخدم كإزار.

من هذه النبذة اللغوية يمكن أن نخلص إلى أن الجلباب يمكن أن يعني إما القميص أو المعطف أو الشال. وعلينا أن

نبعد على الفور معنى القميص الذي لايتوافق مع حكم القرآن. في الواقع ان القرآن يطالب المؤمنات بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، والقميص في شكله لايسمح بالتأكيد، بالاستجابة لهذا الطلب، وعلى العكس من ذلك فإن الملابس التي لها شكل المعطف أو الشال تتناسب تماماً مع ذلك. ومن هنا يحق لنا بأن نترجم كلمة جلباب بشال أو معطف. والترجمة تنال شرعيتها من ان المرط كان أيضاً لباساً عاماً تضعه النساء فوق باقي الملابس. ونخلص من ذلك، إلى أنه غير مطروح بحال ارتداء ملبس خاص لتغطية الوجه: الازار أو الجلباب يوضع فقط بشكل يغطي الرأس أو قسماً من الوجه لتتميز به النساء الاحرار كما اراد محمد.

بعد عامين أو ثلاثة من الفرض الإجباري للحجاب، وضع محمد لنسائه قاعدة العزل. وبهذين الأمرين المتضامنين (الجلباب والعزل) واللذين يبالغ أحدهما في الآخر، أخذت المسألة سريعاً أبعاداً لاحساب لها بالقياس الى المضمون الاصلي الذي جاءتا فيه. ومن المؤكد أنه لم يكن بالامكان عدم اتباعهما دون المس بالدين، ولكنهما لم ينالا هذه الاهمية إلا لأنهما وجدا ظروفاً مناسبة كما سنرى بواسطة مؤسسات ملازمة لهما كالعبودية. ولكن موضوع بحثنا ينحصر بقضية الحجاب والملابس الخاصة لحجب الوجه.

إن ما أتينا على ذكره، يبين بأنه لم يكن في عهد محمد عند العرب قطعة ملابس خاصة غايتها تحديداً حجب وجه المرأة. والادبيات عندما تتناول قضية ملابس النساء لاتورد سوى الازار والجلباب والدرع أو القميص والخمار. ونحن نعرف

بشكل أكيد بأن هذه الملابس كانت ترتديها كل النساء في زمن النبي[١٣]، إلا أن ادبيات الحقبة لاتشير الى غيرها. وقد بقيت أيضاً تشكل الملابس الكلاسيكية لبعض الوقت بعد وفاة محمد [١٤]. ولكن في القرنين الأول والثاني للهجرة دخل "النقب" و"البرقع" في الآداب وهما عبارة عن حجابين مهمتهما تغطية الوجه، ونستعير من دوزي التفسيرات التي يعطيها بشأنهما ثم نتناول بعد ذلك ماوجدناه في تاريخ الحجاب.

"إلى هنا، يقول دوزي، لم يمر بنا أي مصطلح يستخدم لتسمية حجاب للمرأة فيه ثقبان مقابل العينين، ومع ذلك، فان حجاباً كهذا كان يستعمل لأن الرحالة يتحدثون عنه. ولكن الفعل نقب بالعربية وفي العبرية يعني perfovarit (المنقب بالعربية– المترجم). ومن الطبيعي إلى حد ما الافتراض بأن كلمة نقاب يمكن أن تعني Velum cuit Sunt Foramina وفي الواقع فإن ابن جني يؤكد ذلك بالقول: " النقاب أن تعمد المرأة إلى برقع فتنقب منه موضع العين (في تعليقه على شعر المتنبي، مخطوط ١٢٦ ورقة ٢٢٠). ونقرأ في رحلة نيان غيستل[١٥]: "وترتدي نساء الريف أمام الوجه قطعة من قماش مزودة بثقبين للنظر منهما". ويقول بيلون[١٦] الشيء نفسه: وطريقة الفلاحات العربيات والمصريات هي القناع، الأكثر دمامة: لأنهن يضعن فقط مقطع نسيج قطن أسود أو من لون آخر أمام العينين معلق على الوجه ومتحدر حتى الذقن مثل كمامة فتاة تدعى ذات اللحية. وللتمكن من الرؤية عبر هذه المفضلة "الفوطة" يجعلن ثقبين عند العينين. وهن بذلك يشبهن في زيهن المتحصن

الفرسان الذين يتصارعون في الجمعة المقدسة في روما وانيينيون"
(قارن مع بيترا دولا نيال) [١٧].

الامير رادزينبيلي[١٨] يقول أيضاً: "يشكل حجابهن قطعة من القطن يوجد فيها ثقبان عند العينين (pro oculis excisis Foraminibus) وتنزع الريح بسهولة الحجاب وليس من الصعب رؤية وجوههن". ونقرأ في كتاب آخر[١٩] أن نساء الأرياف "يغطين الوجه بقطعة قماش مخيفة المنظر فيها ثقبان عند العينين". وعند كوبان[٢٠]: "بنات الاشخاص الميسوري الحال يضعن برقعاً أحمر، وبنات الفقراء يضعن برقعاً أبيض أو ازرق. وفي الحالتين نجد فتحتين امام العينين تتمكن عبرهما المتسترات من الرؤية عند السير". وهذا النوع من الحجاب كانت ترتديه أيضاً النساء البدويات في مصر. ونجد عند هيلفريخ[٢١]: "يغطين وجههن بقطعة قماش فيها ثقبان للرؤية" ويقول روجيه [٢٢] في حديثه عن بدويات سورية: "يضعن قماشاً على الوجه مثقوباً في منطقة العينين" [٢٣] أ.هـ

إذن فالحجاب المسمى "النقاب" كان الموضة الاكثر استعمالاً، هذا الحجاب لم يكن يستعمل في عهد محمد. ولم نجد سنداً واحداً يمكن أن يجعلنا نتنازل عن تأكيدنا هذا. والنقاب لم يكن مستعملاً إلا في حالات خاصة، وكرداء استثنائي. ويخبرنا الحديث أن عائشة خرجت مرة في نقاب عند باب المدينة لرؤية صفية السبية اليهودية التي اعتقها محمد والتي ضمها الى نسائه[٢٤].

هذه الواقعة التي يستشهد بها الرواة بوصفها استثنائية لاتؤيد بالتأكيد قدم استعمال الحجاب، بل تقودنا الى تأكيد

العكس. ان ابن سيرين، عالم من القرن الاول (توفي في ١١٠هـ) [٢٥] يعلن أن النقاب لم يكن سوى موضة [٢٦]. وهذا يدعم فرضيتنا بأن استحداث النقاب كان في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة.

النقاب، هذه الموضة الاسلامية اصبحت ذات استعمال شبه معمم، وكما يمكن أن نلحظ عن دوزي، كان لها حظها من النجاح عند مسيحيات صقلية في القرن السادس للهجرة، لنقرأ نص ابن جبير الذي يتحدث عن صقلية: "وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن باللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر" [٢٧]. من الممكن الا تكون ملاحظة ابن جبير صحيحة إلا عن مسلمات اصبحن مسيحيات واحتفظن بالزي والعادات الاسلامية، أما الواقع ومايهمنا، فهو تعميم النقاب.

النقاب، مستحدث القرن الاول الهادف الى تغطية صارمة لوجه المرأة، يجد إلى جواره لهذه الغاية حجاباً من نفس النمط: البرقع، والموظف لنفس الغاية، ويعود استعماله تقريباً إلى نفس حقبة استعمال النقاب.

وحسب عالم اللغة الجوهري فالبرقع يشير إلى ملابس النساء البدويات [٢٨]. ومن الاعتباطية أخذ موقف سريع حول دور هذا الزي. هل كانت غايته الحماية من قساوة الطقس أم ضد الحشرات؟ هل استعمل لحماية وجه البدوية من نظرات الرجل؟

ليس بالامكان الحسم في ذلك، إلا أنه بالامكان الافتراض أن للبرقع دوراً آخر غير العزل. النصوص البدوية القديمة والعربية ماقبل الاسلامية تعرض لنا حالات يرتدي فيها الرجال الحجاب، الامر الذي يمكن وصفه حسب اعتقادنا بالشيء العادي في الظروف الخاصة بالحرب والقتال والثأر. ولا يقدم لنا الادب أو فقه اللغة من معلومات مفيدة أو واضحة حول هذا الملبس الذي لم يكن عاماً عند قدماء العرب وتعمم استعماله لاحقا. ونقتطف توضيحات دوزي الذي جمع معلومات عن زي يحمل هذا الاسم في حقبة أكثر حداثة:

"نعرف أن البرقع كلمة استعملها الشعراء العرب كالمتنبي والمعري الخ. وبمقارنة الشعر الذي يستشهد به الجوبري نرى بأنه كان متعدد الألوان في القديم. ويشير الشعراء غالبا إلى هذا الحجاب في استعاراتهم. ولكن في القرون الوسطى للتاريخ العربي كان مصير هذا الحجاب الاندثار واصبحت الموضة هي استبداله بحجب أخرى. وفي الواقع، نبحث دون جدوى عن هذه الكلمة في "ألف ليلة وليلة" الكتاب الذي نجد فيه اشارات لعدة انواع من الحجاب. وأظن، إن لم أكن مخطئاً أن الاشارة إلى هذه الكلمة عادت في القرن الماضي حيث نجد "البرقع" في مصر ويصفه الكونت شابرول كما يلي[٢٩] : .«مايغطي الوجه من مارن الانف وهو متصل بهندام الرأس أعلى الجبهة في كل جانب، وهو قطعة من الحرير أوالقماش الابيض الرقيق بعرض الوجه ويمتد حتى الركبتين. وهذا الحجاب ضروري للمرأة التي تخرج من بيتها» .

ونقرأ في كتاب بوكوك[٣٠] : "وتضع نساء العامة على الوجه

نوعاً من المريلة التي تتصل بشريط إلى هندام الرأس فوق الانف" وفي مرجع أخر نجد[٣١] : "قطعة من الحرير الأسود تقوم تماما بدور الحجاب بحيث لايمكن أن نرى من الوجه سوى العينين" (يذكر الكاتب ذلك عن نساء العامة) . وفي Planche XX° يمكن أن نرى زي امرأة من القاهرة من وضع اجتماعي أكثر يسراً يتجاوز فيه البرقع الأسود فقط منتصف الجسم. وهو يشير في الوقت نفسه تماماً إلى ماتعنيه كلمة "يشمق" التركية، حيث يمكن أن نقرأ في كتاب تورنر[٣٢]، أن هذا الرحالة شاهد في رحلته بين دمياط والاسكندرية نساء قبطيات يرتدين "اليشمق" الطويل الاسود الذي ينزل من أعلى الانف إلى الركبتين. ونفس الرحالة يقول في مكان آخر (ج٢ ص٣٩٦) عن نساء العامة في مصر بأن هذا المنديل يعلق عليه عند الجبهة بعض الحلي من ذهب وفضة أو نحاس أصفر. و "اليشمق" حجاب من القطن الاسود أو الحرير يغطي كل الوجه عدا العينين وينزل حتى الصدر وأحياناً حتى الركبتين". وأخيراً نورد مايذكره لين [٣٣] في كتابه الجميل: " برقع أو حجاب الوجه (للنساء من الطبقات الراقية والمتوسطة) وهو قطعة من النسيج الموصلي (نسبة لمدينة الموصل في العراق- المترجم) الابيض تغطي كل الوجه عدا العينين وتنزل تقريبا حتى القدمين، يعقد في طرفيها العلويين شريط يمر على الجبهة ويتصل بدوره مع نهايتي الحجاب العليا بشريط آخر حول الرأس. وبعد ذلك يقول نفس المؤلف (جزء١، ص٦٤) بأن نساء العامة يرتدين برقعاً، نوعاً من الكريب (قماش رقيق جعد- المترجم) الأسود الواسع، وبعض من ينحدرن من اسرة الرسول يلبسن برقعاً

أخضر. وفي مكان آخر يصف بعض زينة البرقع (جزء١، ص ٩٧،٦٦) بهذا الشكل: القسم الأعلى من البرقع الاسود مزين بحلي من المجوهرات المزورة وقطع نقود صغيرة من الذهب، وحلي أخرى من نفس المعدن، صفائح صغيرة تسمى البرق؛ وفي بعض الحالات بحبات المرجان تحتها قطعة نقد ذهبية. وفي أحيان أخرى، قطع نقود فضية ليست ذات قيمة كبيرة؛ والأكثر اعتيادا سلاسل من النحاس الاصفر أو الفضة تتصل كل منها باحد طرفي البرقع في الاعلى. وتسمى عيون. ويمكن أن نجد شكل البرقع عند لين (ج١،ص٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦) وفي وصف مصر[٣٤].

وفي أيامنا لانلحظ نوعاً آخر للحجاب في مصر.

في سورية، ترتدي البرقع النساء البدويات اللاتي يطلق عليهن اسم "قبيلي" Keblis[٣٥] وفي الساحل السوري يلاحظ وجود هذا النوع من الحجاب ايضاً[٣٦]. أما في الجزيرة العربية، فترتدي البرقع حاليا نساء مكة وجدة والمدينة ويلبسنه أبيض أو أزرق[٣٧].

وفي القرن الرابع عشر للميلاد يبدو أن البرقع كان مستعملاً في شيراز لأن ابن بطوطة في رحلاته يتحدث عن نساء هذه المدينة بالقول: "ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء".

ومن المفيد الاشارة إلى أنه في بلاد ماوراء النهر، فإن تعبير برقع يعني حجاباً للوجه، ولكنه حجاب كبير أو معطف تلتحفه المرأة بشكل كامل. ونقرأ في أحد المراجع[٣٨]: " وتضع النساء على اجسامهن اللهادر (التشادور) أو غطاء من الحرير يسمى بوركا

يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين، ولكن يترك قرب العينين فتحة صغيرة كالشبكة بالشكل الذي نلحظه عند الفرس" (وهذا ينطبق حصراً على نساء المدن، أما نساء الريف فسافرات الرأس وكذلك النساء المسنات في المدن) (نفس المصدر، ص٨٦)، وفي مكان آخر (ص١٠٤) نجد: "نساء المدن والقرى يتحجبن كما في الدول المحمدية الأخرى ويلبسن البوركا التي تغطي الجسم من الرأس حتى القدمين"[٣٩]. أ.هـ

هذا التحقيق الذي قام به دوزي، يظهر أن "البرقع" كان موجودا في عدة أماكن وفي اشكال مختلفة. وأصل هذا الملبس غير واضح تماما، وهو نادراً مايرد في الادبيات القديمة، وأقدم نص يشير إلى البرقع هو شعر لسحيم عبد بني الحسحاس[٤٠] والذي قتل في عهد الخليفة عمر، ونجد أيضاً في الحماسة (ص ٩٥، طبعة٢٣، فريتاج) جملة تشير الى هذا الهندام.

التبريزي، الذي اعتاد التعليق على الاشعار القديمة يحدثنا بأن الشاعر «القتأل» نجا من انتقام اعدائه بارتدائه ثياب امرأة[٤١] وفي مقطع آخر من الحماسة نجد إشارة للبرقع كجزء من تجهيز الحيوانات[٤٢].

هذه هي أقدم النصوص التي تشهد على وجود هذا اللباس، وليس بالامكان استخلاص استنتاج مقبول إلا في اطار ماسبق وذكرناه آنفاً. ولنعرض واقعة تشير إلى مدى أهمية الحذر في هذا المجال. فأثناء بحثنا في أصل البرقع، مر بنا مقطع يورد فيه الشاعر عمر بن أبي ربيعة كلمة "القناع" في إحدى أشعاره المجازية، ونحن نعلم أن القناع زي يضعه الجنسان على الرأس. ولو أراد الشاعر لاستعمل كلمة تتبرقعا بدل كلمة تتقنعا، ولا

يعترض على ذلك اللحن ولا الضرورة الشعرية[٤٣]. إن استعمال الشاعر لهذه الكلمة يؤكد على ندرة استعمال الحجاب الذي يغطي الرأس.

الهوامش:

١ – فقيهي، ص٢، طبعة وستنفيلد:
ذكر الطواف بالجواري الاحرار والاماء بمكة إذا بلغن... وجعلوا عليها حليا إن كان لهم ثم أدخلوها المسجد الحرام مكشوفة الرأس بارزته حتى تطوف بالبيت والناس ينظرون اليها ويبدونها ابصارهم فيقولون من هذه؟ فيقال فلانة بنت فلان إن كانت حرة ومولدة آل فلان إن كانت مولدة.

٢ – هذه الرواية، أخبرنا بها السيد اريندوك من لايدن، الذي يعمل على تاريخ أئمة اليمن. وهي مأخوذة من مخطوط في مكتبة المتحف البريطاني.

٣ – ابن إياس، تاريخ مصر، ج١، ص٣٣، طبعة بولاق.

٤ – ابن إياس، تاريخ مصر، ج٢، ص٢١: ثم انه (أي الاشرف برسباي) نادى بأن امرأة لاتخرج من بيتها مطلقاً فكانت الغاسلة إذا أرادت التوجه إلى ميت، تأخذ ورقة من المحتسب وتجعلها في رأسها حتى تمشي في السوق.

٥ – هذه الفكرة العامة عن البداوة ليست دقيقة، فقد كان هناك تقسيم عمل بين الجنسين وكانت الحياكة من مهمات المرأة التي تشكل العنصر الانتاجي الاساسي في القبيلة. للتوسع، إنظر: هيثم مناع: انتاج الانسان شرقي المتوسط، ص٨٩ ومابعدها (المترجم).

٦ – ابن سيده، المخصص، الفصول التي تتعلق بملابس النساء والامتعة المنزلية. (الجزء الرابع)

٧ – دوزي، قاموس مفصل لأسماء الملابس عند العرب (بالفرنسية).

٨- المور: تسمية تاريخية كانت تطلق على المسلمين العرب والبربر في شمال افريقيا وعلى المسلمين الذين اقاموا الامبراطورية الاموية في الاندلس وذلك بين القرنين الثامن والخامس عشر (المترجم).

٩- دوزي، نفس المصدر، ص٣.

١٠- البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص٣١٩: فإنا قد خشينا أن يفتن ابناءنا ونساءنا.

١١- الآية هي: "يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلبابهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين- الاحزاب ٥٩- (المترجم).

١٢- ابن سيده، المخصص، ج٤، ص٧٦: الملحفة- الملاءة واللباس الذي فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه - المرط ملحفة يؤتز لها الجلباب الملاءة. وفي نفس المصدر، ص ٩٤ نجد: الجلباب هو القميص وقد تقدم أنه الملاءة.

١٣- طبقات ابن سعد، ج٨، ص٦٩: كانت ميمونة تصلّى في الدرع والخمار وليس عليها إزار.

١٤- تفسير الطبري، ج٢، ص٢٠٥: إن شريحاً كان يمتع بخمسمائة قلت لعامر ما وسط ذلك؟ قال: ثيابها في بيتها، درع وخمار وملحفة وجلباب.

15- T. Vojage van Mher Joos van Ghistele, Page.23.

16- Belon, Observations, Page. 233.

17- Pietra della Valle, Viaggi, tom.1, Page. 330.

18- Radzivill, Jerosolymitane perigrinatio, Page. 187.

19- Arelation of a Journey begun An. Dom 1610, Page. 209.

20-Europe), Page.219.+20- La Religion de Coppin (Le Bouclier de L

Hellfrich (Kurtzer und wahrhaftiger Bericht von der Rayszn, fol. 387 V

22- Roger, La Terre Sainte, Page. 208.21- La Religion de

23- Dozy, Dictionnaire detaille des noms des vetements chez les Arabes

p.424 et suiv.

٢٤– انظر طبقات ابن سعد، ج٨، ص٩٠: "فسمع بها نساء الانصار وبجمالها فجئن ينظرن إليها وجاءت عائشة متنقبة حتى دخلت عليها فعرفها النبي".

٢٥– إنظر: ابن قتيبة، كتاب المعارف.

٢٦– لسان العرب، كلمة نقاب. يقول ابن منظور: وفي حديث ابن سيرين: النقاب محدث، أراد أن النساء ماكن ينتقبن أي يختمرن (إضافة من المترجم).

٢٧– ابن جبير، رحلة الى صقلية.

٢٨– البرقع، حسب الجوهري والليث وابن منظور والازهري: تلبسه الدواب ونساء الاعراب. وبرأينا فإن استعمال البرقع عند الاعراب سبق استعمال النقاب ولم يكن عاماً في الجزيرة العربية، وكان اسمه ايضاً الوصوصة. يقول ابن منظور: "الوصوصة والبرقع وكان من لباس النساء، ثم احدثت النقاب بعد". (المترجم)

Egypte, tom. XVIII, Page.114.+29- Chbrol, La descriptrion de L

30- Pocock, Beschrijving van bet Oosten, tom. 1 Page. 320.

de Wittman, Travels in Asiatic Turkey, Syria and Egypte. Page.374.

31- Relation

32- M. Turner, Journal of a Tour in the Levant, tom II, Page. 308.

33- M. Lane, Modern Egyptians, tom I Page.61.

34- Egypte (Atlas, tom I pl.E.41).+34- La Description de L

35- Burckhardt, Notes on the Bedouins and Wahabys, Page.29.

M. Turner, Journal of a Tour in the Levant, tom. II, Page. 105, 304.

36- Voyez:

37- Burckhardt, Travels in Arabia, tom.II Page. 243.

38- Relation de Fraser, Journey into Khorasan, Appendix E, Page.89.

٣٩– هذا المقطع الطويل مأخوذ عن كتاب دوزي ص

٦٥،٦٦،٦٧،٦٨. (نود التنويه إلى أن كتاب دوزي صدر عام ١٩٤٥، ومن هنا، فحالياً بالنسبة للمؤلف، تعني النصف الأول من القرن التاسع عشر- المترجم).

٤٠- يعود الفضل في هذه الملاحظة الى نولدكه، عبر السيد سنوك، وهي مأخوذة من مخطوط قديم في لايبزغ.

(سحيم شاعر غزل من أصل حبشي ومن رقيق شعره، نجد استعمال المئزر ايضا في قوله:

حَمَلْنَ جِرانَ العَوْدِ حتى وَضَعـنَهُ
بعلياء في ارجائها الجنُّ تَعزِفُ

وأحرَزْنَ مناكل حُـجرةِ مئـزرٍ
لهن، وطاحَ النـوفلي المزخرفُ

وقُلْنَ: تمتـع ليلـة النأي هـذه
فإنك مرجومٌ غداً أو مُـسيِّفُ

وقد مر بنا أكثر من مثل على البرقع والبرقوع منها قولة الجعدي:

وخدٌ كبرقـوع الفتـاة مُلَمَّعٍ
وروقين لمّا يَعـدُ أن يتقشرا

فيما لايتعارض مع وجهة نظر منصور فهمي - المترجم)

٤١- انظر الحماسة ص ٩٥: ثم خرج من القتال هاربا وأصحاب القتيل يطلبونه فمر بابنة عم له تدعى زينب متنحية عن الماء فدخل عليها فقالت ويحك قال القي عليّ ثيابك فالقت عليه ثيابها والبسته برقعها.

٤٢- نفس المصدر، ص٥٤١:

عهدت بها وحشاً علـيها براقع
وهذي وحوشٌ اصبحت لم تبرقع

٤٣- نفس المصدر، ص٥٢٢:

ولـّما تفاوضن الحديث واسفرت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعـا.

الصرامة المتزايدة في لباس المرأة تلحق مسيرة موازية في قسوة ممارسة العزلة على النساء. عندما نذكر الحقبة الزمنية التي كان فيها النبي واصحابه يجلسون لتناول الطعام في حضور زوجة المضيف، وعندما نقارن هذه الفترة بالفترات المتعاقبة نجد ان انتقاص مهم من حرية المرأة. "عن سهل قال لما عرّس ابو أسيد دعا النبي واصحابه فما صنع لهم طعاما ولا قربه اليهم إلا امرأته أم أسيد بلت تمرات في تور من حجارة من الليل فلما فرغ النبي صلعم من الطعام اماتته له تتحفه بذلك"[١].

واذا عبرنا الجزيرة العربية الى مصر من القرن الأول للهجرة الى القرن التاسع حيث سلطان مصر أمر العزلة التامة للنساء يمكننا ان نتبع -بين هاتين النقطتين المتطرفتين- الدرجات المتلاحقة في انحطاط وضعية المرأة. ففي القرن الثامن في مصر منع ملازم السلطان النساء من ارتداء قميص ذي أكمام واسعة. "وفي سنة ثلاث وتسعين (بعد السبعمائة) أمر كتبغا نائب القبة ان لاتخرج النساء الى الترب بالقرفة وغيرها ومنع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام"[٢] ويظهر بوضوح هنا ان سبب المنع هو الرغبة في تقييد حرية المرأة وليس انهماك السلطان في مسألة جمالية.

وفي بداية القرن الخامس يروي المؤرخون ان الخليفة المجنون الفاطمي الحاكم منع النساء الخروج من بيوتهن. "وفي سنة ٤٠٥ زاد الحاكم في منع النساء من الخروج من المنازل ومن دخول الحمامات ومن التطلع من الطاقات والاسطحة ومنع الخفّافين

من عمل الخفا لهن"[٣].

وفي غضون القرن نفسه –حسب الاسطورة التاريخية– دأب ابن الخليفة الفاطمي على إبادة الجنس الانثوي.

والحقيقة ان انحطاط المرأة المتواصل استمر عدة قرون بعد مجيء الاسلام وان هذا التدهور لا علاقة له بالحياة العربية في الازمنة البدائية.

لنترك بلاد مصر ولنرجع الى الجزيرة العربية في أوائل الفترة الاسلامية حيث نلاحظ اضطرابا مثيرا في العقليات والاخلاق بكل ما يتعلق باحكام وتنظيم مكانة النساء. إذ يقال ان اوائل العرب من انصار محمد –بعد قليل من وفاته– كانوا يتناقشون حول موضوع السماح للمرأة بالصلاة في الجامع. هل من اللائق أن يُسمح لها أو هو شيء غير مُستحب؟ "..عن ابن عمر قال رسول الله لا تمنعوا النساء من الخروج الى المساجد بالليل فقال ابن لعبد الله لا ندعهن يخرجن فيتخذنه دغلا قال فزبره ابن عمر وقال أقول قال رسول الله وتقول لا ندعهن"[٤] وأما الروايات فتقول انه كان هناك طرفان متناقضان: طرف مع وطرف ضد إلا ان الجانب المعادي للسماح للمرأة بالصلاة في الجامع هو الذي طغى.

ينسب الى الخليفة عمر الكلام التالي: –وتنقل الينا الروايات أن افعاله وكلماته ساهمت في انحطاط مكانة المرأة– "ابقوا النساء اسيرات لأنهن ان خرجن لحضور أفراح الزفاف والاعياد وحضور الجنائز وكانت لهن حرية الخروج من منازلهن فانهن ينتهزن الفرصة ان يرين ما يسرهن حتى عندما يكون أزواجهن اكثر وسامة ونبلا من الرجل الآخر. فالرجل الذي لا يمتلكهن

يصبح اكثر نفيساً من الزوج وهكذا ينجذبن اليه" (٥).

لاندعي هنا ان كلمات عمر هذه هي فعلا كلمات خرجت من فم الخليفة، عندما نذكر ان الروايات التاريخية هي مشوشة وخاصة تلك التي تنسب الى محمد وأصحابه اكثر من رأي واحد وهنا أهمية النقد التاريخي. إلا ان الحديث يحتوي على المباديء والآراء التي اخترقت الدوائر المهيمنة في المجتمع الاسلامي في القرون الأولى من الهجرة. وهذا يكفي لبحثنا الذي نتوخى من ورائه تحديد ودراسة تطور المفاهيم الاسلامية التقليدية عن المرأة والأخذ بعين الاعتبار للسمات والوقائع الأكثر أهمية والاكثر تميّزاً.

وخلاصة القول ان عزلة النساء اصبحت مع الزمن شيئا مألوفاً وأخذت تعمم أكثر وأكثر وأعتبرت في النهاية شيئاً طبيعياً جداً. فالمصطلحات التي تعبر عنها كانت تستخدم لإطراء امرأة ما أو عائلة بأسرها.

فسابقا عند العرب القدماء كان يُميّز بين المخدرات وغير المخدرات. فالمخدرات كن الفتيات أو النسوة اللواتي ينتمين الى العائلات الثرية وبحكم ذلك كن يتركن للجاريات أوالامات القيام باعمال البيت البدوي كحلب الجمال والعناية بها. وهن يبقين سيدات في خيامهن. إلا ان عزلة المخدرات عند قدماء العرب تختلف عن عزلة المسلمات اذ لم يكن هدفها حجب المرأة عن رؤية الرجل بل لترسيخ التمييز بين النبلاء المنتصرين والعبيد المنهزمين. والشعراء في تلك الفترة ان ارادوا اطراء قبيلة ما أو قائد ما كانوا يتباهون بصدارة القبيلة بأن يسمّوا نساءهم بالمخدرات.

هذا الاطراء المتأصل في المناقب والاخلاق العربية كان مايزال حياً ومستمراً في عهد العباسيين حيث حكمت مصر في القرن السابع للهجرة الملكة شجرة الدرّ. فالواعظون في الجوامع لم يجدوا تعبيراً أفضل لاسداء الاطراء للملكة شجرة الدرّ إلا بالحديث عن حجابها الصارم. "فكانت الخطباء بعد الدعاء للخليفة تقول واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل"(٦).

نذكر مثل الملكة شجرة الدرّ لأنه يطابق ما تكرره اقوال الروايات العربية الاسلامية. فالمثل القديم يردد: "تأخذ الناس مثلاً من الحاكم" فالحاكم هو المثل الأعلى للشعب. وبما ان الحكام يعتبرون عزلة النساء كقيمة في الاخلاق فاذن، فان الشعب يتبع ماتقوله الحكام. وكم من المرّات غيّر حكام بغداد ومصر مباشرة او غير مباشرة موضة الملابس في البلاد. فبغداد المدينة التي انصهرت فيها كل اجناس البشر، من عباقرة وفنانين اتوا اليها من كل جهة صنعت ملابس الرجال بشكل متماثل ووجهت ملابس النساء لتناسب عزلتهن.

الصدفة أيضاً ساهمت في تطور ملابس النساء في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة. تقول الرواية ان ابنة عم الخليفة المأمون كانت تحتل مكانة مرموقة في مجتمع بغداد نظراً لجمالها وموهبتها كشاعرة وتذوقها للموسيقى. إلا ان جمالها لم يكن كاملا –اذا اردنا تصديق الرواية– اذ ان جبينها كان كبيرا اكثر من اللازم ولتمويه هذا النقص اتخذت هذه السيدة اللامعة منديلا من الحرير مزيّناً بالاحجار النفيسة

وحورته بشكل قطري لتضعه على رأسها. في اليوم التالي تبنت سيدات مجتمع بغداد المخملي زي ابنة عم المأمون.

"اخبرني عمي قال حدثني علي بن محمد النوفلي عن عمه قال كانت علية بنت المهدي من احسن الناس واظرفهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الالحان الحسنة وكان بها عيب في جبينها فضل سعة حتى تسمح فاتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها فاحدثت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء واحدثته احسن منه" [٧].

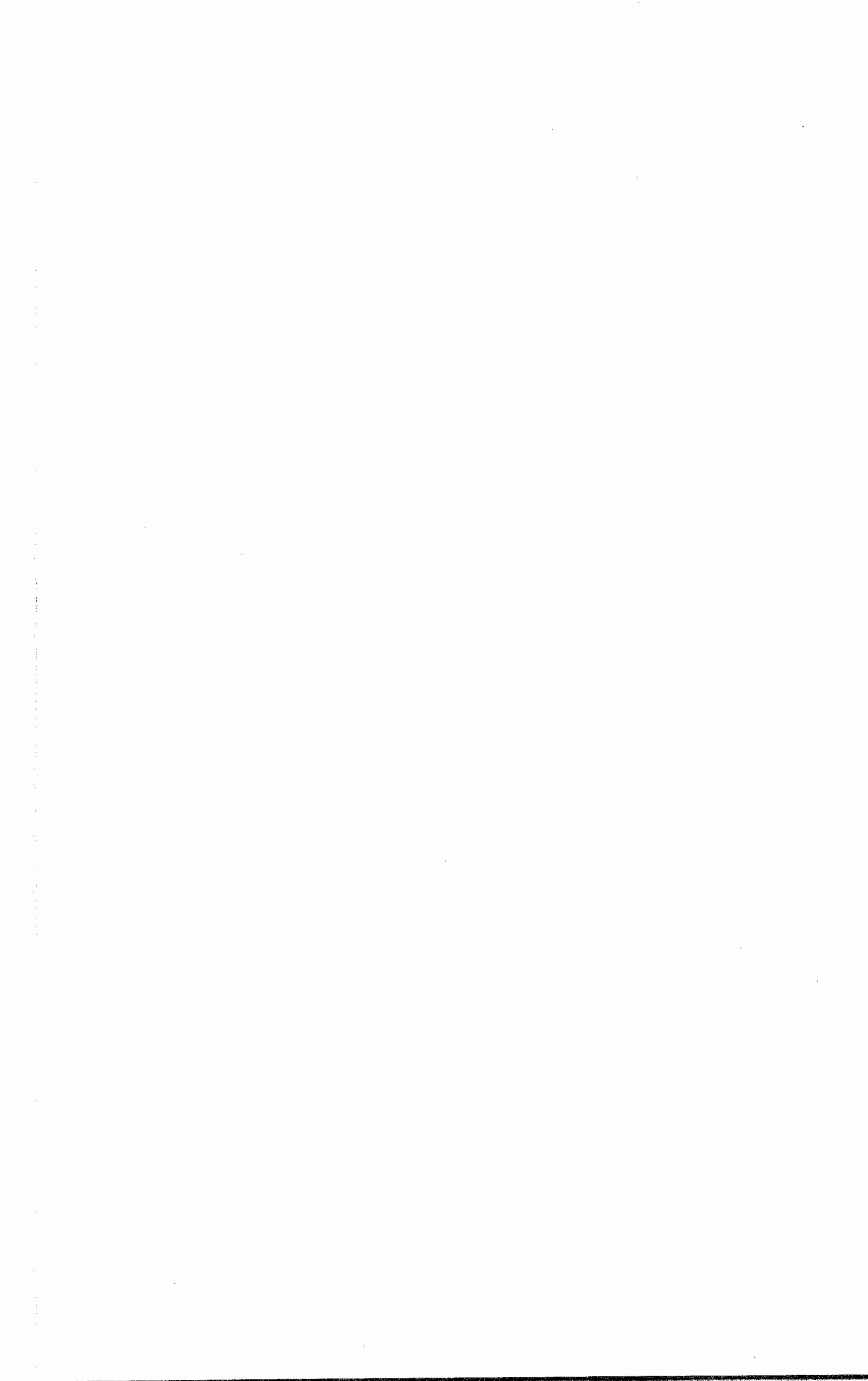
تذكر كتب الادب العربي الكثير من ذكريات هذه العصائب الحريرية التي كانت في فترة من التاريخ تعتبر قمة في زينة النساء ذوات الذوق الرفيع والقدوة الحسنة.

وإذ نخرج قليلا عن موضوعنا هنا، نلاحظ ان انهماك الحاكم في مصر المسلمة في فترات مختلفة، كان يتركز على تمييز الناس من خلال ملابسهم. ففي بداية النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة أصدر المجمع الديني القانون التالي: على المسيحية ان ترتدي معطفا ازرق واليهودية معطفا اصفر والسمارية معطفا أحمر[٨].

وبعد عشرين سنة اي حوالي سنة ٣٧٣ سنّ السلطان القانون الذي يلزم المتحدّرين من سلالة النبي بان يتميزوا عن غيرهم بارتداء العمامة الخضراء[٩]. ونضيف هنا انه منذ زمن العباسيين كان حكّام بغداد والقاهرة يجدون الوقت الكافي للاهتمام بالملابس. فهندام المرأة اصبح اكثر صرامة والرجال تلبس ملابس متشابهة.

الهوامش:

١- صحيح البخاري الجزء ٤ ص ١٩
٢- حصون المحاضرة الجزء ٢ ص ١٦٦
٣- نفس المصدر ص ١٥٢
٤-صحيح مسلم الجزء ١ ص ١٢٩ مطبعة بولاق
٥-الجاحظ ص ٢٧٤ ed. Brill, 1898
٦-ابن اياس تاريخ مصر الجزء ١ ص ٨٩ مطبعة بولاق
٧-الأغاني الجزء ٩ ص ٨٣
٨- حصون المحاضرة سيوني ص ١٦٤
٩- ابن اياس تاريخ مصر احداث عام ٧٧٣



الفصل الثالث
العبودية في القانون

كان الرجل في مجتمع العرب القدماء يستطيع تملك العديد من النساء بقدر ما يسمح له وضعه المالي. وكلما زادت انتصاراته زاد عدد تملكه للعبيد. والعبد –او الجارية كان مُلك سيده يفعل به ما يشاء. ومن بين العبيد كان الرجل يختار خليلاته. وأما الطفل الذي يولد نتيجة علاقة ابيه السيد الحر مع أمه العبدة فان مصيره كمصير أمه. فلا هو ولا أمه يعتقان إلا اذا تكرّم عليهما صاحب الامر والنهي[1].

هؤلاء العبيد كانوا مكلفين بالقيام بكل الاعمال ومنها الاعمال المنزلية.

وفي بعض الاحيان –حسب الروايات– كان السيد يستغل الأمة بأن يدفعها الى ممارسة الدعارة[2] إلا ان المغنية الأمة كانت تدرك مكانة أفضل من الأمة العادية. وهذه الأخيرة كانت في البيت المنزلي تقوم بكل ما يتطلب البيت وكذا تعفي سيدتها من القيام بهذه الاعمال.،نتيجة ذلك فان زوجة السيد كانت حبيسة المنزل وحُرمت من الاتصال بالعالم الخارجي ولهذا فان حداً فاصلاً نشأ بين دور المرأة الأمة الايجابي والدور السلبي للزوجة.

والزوجة كانت تختارُ من عائلة نبيلة لكي يضمن الزوج نبالة طفله من ناحية الأم والأب. كما ان الحافز السياسي كان يلعب احيانا دوراً مهماً في انتقاء الزوجة من أجل تحقيق

التقارب بين قبيلتين عدوتين، – وهذا ما فعله النبي في احدى صفقات زيجاته.

وخلاصة القول: ان بين العقلية التي كانت توجه عقد الزواج مع النساء النبيلات الحرّات وبين الاوضاع التي كانت تنظم مصير الأمات كان هناك اتجاه لخلق طبقتين متميزتين من النساء اللواتي تفرق بينهما اعمالهن او وظائفهن ونمط حياتهن والعناية المحاطة بهن.

وفيما بعد وفي بداية الحقبة الاسلامية تضخم الفرق بين هاتين الفئتين لدرجة ان الأمة أجبرت ان تميز نفسها بملابسها واعفائها من العزلة.

إلا ان عزلة النساء الحرات كانت موجودة في مجتمع العرب القدماء. وجاء الاسلام ليحسن نظريا وضع المرأة الأمة.

والآن لندرس الموضوع من وجهة نظر القانون ومن ناحية الواقع والنتائج التي تتعلق بعزلة النساء الذي هو موضوع درسنا.

مصدر أو منبع العبودية هو مبدأ الحرب أو من نتيجته، فالكافرون الذين رفضوا اعتناق الاسلام أو دفع الفدية، وجدوا انفسهم في خانة العبودية. لكن في حالة حصول حرب بين المسلمين انفسهم لم يكن مسموحاً ان يخضع سجناء الحرب للعبودية بيد انه كان ممكنا شراء العبد المسلم من العدو الكافر او من يد مسلم آخر كان قد اشتراه في مثل هذه الظروف.

وعجز الأُم الأَمة يقود الى عدم اهلية اطفالها ويستثنى منهم هؤلاء الذين يكون ابوهم سيدها او مالكها.

وفيما يختص بحالة العبيد فيمكننا القول انها كانت

معتدلة رحيمة اذا قارناها بوضعية العبيد عند اليونان او الرومان او حتى عند العرب القدماء. الا ان العبد يبقى بلا شخصية قانونية اذ هو ملك مالكه وسيده. ولكن قانون العبودية هذا يعترف ايضا بحق العبد في الحياة، فلا يحق لمالك العبد ان يقتله حسب توصيات الفقيه ابي حنيفة. ومبدئيا لا يحقّ للسيد ان يعاقب عبده إلا في حالات خاصة، وكل عقاب غير انساني يعرض المالك للمحاكمة امام القاضي.

وينتج عن قانون حق ملكية العبد ان هذا الاخير لا يتمتع بحق الوراثة. والاكثر من ذلك فان العبد لايملك اي شيء وان وُهب باي شيء فهو ملك سيده.

فأما في الدعاوي المدنية فان اقوال العبد –ان كان مدافعا او طالبا– يجب ان تكون مدعومة من قبل سيده لتأتي بأية نتائج. وعليه اي العبد ان ينفّذ بأمانة الاعمال التي يطلبها المالك والمالك بدوره ملزم بعناية وعلاج العبد في حالة المرض. وبطبيعة الحال فان حق التملك يعطي المالك الحرية بان يتخلص من عبده ببيعه او ببيعها. ومبدأ بيع العبد خاضعٌ لحالات استثنائية مشروطة بقيود اخلاقية. فالمالك الاقطاعي يلتزم مبدئيا ان لايفرق بين الأُم الأَمة – العبدة – وطفلها طالما ان هذا يحتاج الى رعايتها، اي حق حضانة الطفل – الفقيه مالك.

ان حق المالك بالتمتع بالجارية لايسري مفعوله إلا بعد وقت معين من دخولها في ميراثه او في حوزته. هذه الفترة تسمى بفترة "الاستبراء" وهي تعتبر ضرورية للتأكد من أن المرأة الأمة ليست حاملاً. وتُقاس هذه الفترة بالعادة الشهرية الواحدة للعبدة أما للمرأة الحرة فانها تقاس الزاميا بثلاثة. وتفسير هذا الفرق يرجع

الى اصل القوانين المسلمة. فكلما ارتفع شأن الفرد كلما تعقدت علاقاته مع الآخرين، فأخطاؤه ومناقبه تتضاعف كتضاعف العقاب أو المكافأة.

بعد انقضاء الفترة القانونية أو بعد ولادة الطفل ان كانت العبدة حاملاً عندئذ فقط يحق للمالك ان يتخذها خليلة له.
والمالك طبعا يحق له ان يمتلك ما شاء من السريات الى عدد غير محدود.

وعندما تصبح السرية أماً نتيجة علاقاتها مع مالكها فانها تكتسب وضعاً جديداً وهذا يضعها بمرتبة الوسيطة بين الزوجة الحرّة والسرية العادية وبالاضافة الى ذلك فانها لاتباع ولا "تُؤجر" كما ان خدماتها أو اعمالها تقلّ عن السابق. وستُعتق عند وفاة مالكها.

ويمكن أن تتزوج السرية أو الأَمة في الحالات الثلاث الآتية فقط:

١ – أما ان تتزوج مالكها
٢ – ان تتزوج عبداً
٣ – أو ان تتزوج رجلا حرّاً

في الحالة الاولى على المالك ان يعتق خليلته الأَمة اولاً، وبعدئذ يستطيع ان يعقد قرانه عليها، وعتقها ضروري حتى تسترجع كرامتها وحريتها، ثم ان الرجل لايستطيع ان يكون زوجاً ومالكا في آن واحد.

وبعد عتقها يمكن او يحلّ للرجل ان يتزوج أمته دون ان يكون ملزماً بدفع المهر. ونذكر هنا ان عتق الأَمة يساوي في ذهنية القانون الاسلامي المهر الذي يدفعه الزوج الى زوجته

والذي بدونه لا يمكن ان يجري عقد الزواج.

وفي الحالة الثانية حيث تتزوج العبدة رجلاً آخر غير مالكها أو سيدها فان حق تملك هذا الاخير لابطلان فيه.

فالتشريعات الاسلامية تعترف بشرعية هذا الزواج. وهنا فان المالك يتحمل دوراً مضاعفاً: الدور الحامي لقاصر ودور مالك العبدة، وهكذا تلتقي مصالح المالك بمصلحة العبدة.

والمالك للعبدة او للعبد يملك أيضاً قدرة "الجبر" اي يستطيع ان يُزوج المرأة العبدة او الرجل العبد مع الشخص الذي يختاره هو. وله الحق أيضاً ان يضع يده او يستولي على المهر الذي يقدم للعبدة. وما هذا الا تطبيق لقانون حق ملكية العبيد. ولكن من جهة ثانية فان واجب الحماية يلزمه بان يقدم جهاز العرس الذي يمثل على الأقل قسماً من المهر. في حالة بقاء العبدة بعد زواجها في خدمة بيت سيدها فان عليه ان يعولها. وأما اذا سُمح لها بأن تغادر بيت سيدها لتهتم بادارة بيت زوجها فان هذا الاخير يتكفّل باغالتها اثناء فترة الحمل.

أما اذا تزوجت المرأة العبدة رجلاً حرّاً فيطبق على هذا الزواج ما ذكرناه سابقاً من القوانين بالرغم من تواجد بعض العراقيل فيما يخص وضعية الأطفال الناتجين عن هذا الزواج.

ونذكر هنا ان فقهاء المسلمين لايتفقون في بعض تفاصيل أو امور هذا الزواج. -اي زواج العبدة من رجل حُرّ-.

فجماعة المالكيين تعترف بنوعية هذا الزواج ولكنهم يحدّون منه حماية للطفل. وفي رأيهم ان هذا النوع من الزواج لايسمح به إلا في حالة الرجل الحر العاجز عن انجاب الاطفال مثل الرجال المسنين. ويقبلون ايضاً بزواج رجل حرّ معدم

لدرجة انه لا يستطيع دفع مهر امرأة حرّة أو يشجعون هذا الزواج لتجنب الفحشاء.

أما الحنفيون فانهم يقبلون دون استثناء زواج المرأة العبدة من رجل حرّ. والعبدة من زواجها برجل حرّ تصبح هي بدورها حرّة وهنا لا داعي للقلق على الاطفال لأنهم يُخلقون احراراً.

من هذا العرض القانوني نستطيع ان نستنتج ان وضعَ المرأة العبدة يتحسن تلقائيا في حالتين [٣] عندما تكون حاملاً من سيدها [٤] وعندما تتزوج من رجل حرّ.

أما فيما يتعلق بالطلاق فهو يتبع المبدأ القائل – أقلّ تعقيداً للأدنى وقاراً وأهمية. أي ان وضع المرأة العبدة هو أقل تعقيداً من وضع المرأة الحرّة. فالعبدة المطلقة ان هي ارادت ان تتزوج مرة ثانية فعليها ان تتقيد بفترة معينة وهذه تقاس بحدوث الطمث مرتين – أي شهرين.. بينما المرأة الحرّة فان فترتها تقاس بحدوث الطمث ثلاث مرات –٣ أشهر. ونفس الشيء ينطبق في حالة وفاة الزوج فعندئذ على العبدة ان تنتظر شهرين وخمسة أيام.

وفي حالة غياب الزوج أو الشك فيما اذا كان على قيد الحياة أو لا فإن العبدة تنتظر سنتين قبل ان تتزوج من جديد. إلا ان الحرة عليها الانتظار اربعة سنوات لتتزوج من آخر.

ونضيف هنا ان طلاق الحرّة لكي يصبح لاغياً فانها تحتاج الى ثلاثة طلاقات وأما العبدة فاثنان يكفيان. ويُلاحظ أيضا ان عتق المرأة المتزوجة من عبد يعطيها حق الاختيار بين البقاء على زواجها أو الغائه. ويتبع من ذلك ان العبدة التي كانت قاصرا قبل عتقها وراشدة بعد عتقها تستطيع –حسب ابو حنيفة ان

تطالب بالغاء زواجها من العبد الذي فرض عليها في وقت عبوديتها.

هذه هي السمات القانونية المهمة في نظام العبودية وهذا هو وضع المرأة العبدة في التشريع الاسلامي وعلينا ان نذكّر القارىء بالنقاط التالية:

١ – ان لاننسى سهولة الزواج من العبدة.

٢ – ان الطفل المولود من الزواج يُولد حرّاً لأن اباه حُرّ

٣– وأخيراً ان لاننسى ان العبدة تتميز عن المرأة الحرّة بالبساطة التي تطبع اندماجها القانوني مع الآخرين وحياتها اليومية حيث لايفرض عليها اية صرامة في ملبسها ومظهرها الخارجي.

هذه الملاحظات الثلاث ستقود القارىء فيما بعد الى ما سنقوله عن موضوع سهولة الطلاق، والبيت المتعدد الزوجات والميل للعبدات. هذه النقاط الثلاث ستأخذ بعين الاعتبار الدور الذي لعبته المرأة العبدة من خلال علاقاتها بوضعية الزوجة والافكار التي تطورت خلال القرون عن موضوع المرأة المسلمة.

ولنعرض الآن نقطتين متصلتين مباشرة بالعبودية واللتين تشكلان الانتقال الطبيعي الى ما سوف يتبع في منزلة المرأة: عزلتها وانحطاطها المتزايد– النقطتان هما: العتق والعبودية في واقع الحياة الاجتماعية الاسلامية.

العبودية في التقاليد والوقائع

من المؤكد ان القرآن والتقاليد يحتويان الكثير من العوامل

المتعاطفة لصالح العبد او العبدة. وهذه تختصر في مبدأين مهمين:

١- المعاملة الانسانية تجاه العبد عندما لا يُراد عتقها او عتقه.

٢- المحاولة قدر المستطاع عتق العبد، والقانون يُسهّل ذلك.

تكلمنا سابقاً عما يسمّى بـ"أُم الولد" ومكانتها كوسيطة بين المرأة الحرّة وبين العبدة. توجد حالة مشابهة لهذه وتسمّى "التدبير" عندما يُعلن السيد عتق العبد او العبدة بعد موته، وهذا الاعلان يجب ان ينفذ. في غضون حياة السيد فان العبد يُعامل معاملة حسنة نتيجة هذا الاعلان.

وذكر Milliot في أطروحته "وضع المرأة المسلمة في المغرب" سنة ١٩٠٩ في باريس ص ١٨٧ الآتي ونحن هنا نستعمل كلماته نفسها: "فعملية تحرير العبد تجري بين الاحياء بالعتق والكتابة".

والعتق هو اعلان واضح أو كلام ضمني بان العبد أعتق أو العبدة اعتقت وعتقها يصبح فورياً.

وأما الكتابة فهي الاتفاق الذي يسمح للعبد او للعبدة ان تفتدي نفسها بعملها وهذا يمنحها من الآن وصاعداً حرية العمل لتكسب قوتها. ومن هذه اللحظة فصاعداً ليس بالامكان بيعها أو استخدامها أو منعها من العمل لكي تحصل على المبلغ اللازم وتشتري حريتها. إلا انها لاتستطيع -دون موافقة سيدها- ان تتزوج أو ان تتنازل مجانيا عما تملكه.

والعبدة أو "المكاتبة" (اي التي تريد ان تفتدي نفسها

بالكتابة) التي تلد ولداً من سيدها تستطيع ان تفكّ عبوديتها من خلال الكتابة وتُصبح ام الولد وهكذا تملك اليقين بان تتحرر ولكن بأقل سرعة. وبالعكس فان أم الولد تستطيع ان تعقد "الكتابة" وبهذا تحصل بسرعة اكثر على حريتها اذا كان بامكانها ان تدفع الفدية والفدية هي عبارة عن اشياء لها وزنها.

وفاة السيد أو مالك العبدة لاتلغي مفعول الكتابة أما المكاتبة، ففي حالة وفاتها ولم تكن بعد قد سددت الفدية "فديتها" فانها تدفع من قبل وارثيها حتى تتمكن العبدة ان تموت حرّة.

والعتق أيضاً يكون نتيجة قرار سلطة قانونية اذا بُرهن ان السيد مذنب بسوء وعنف معاملته للعبدة.

وبالنسبة لابي حنيفة فان العبدات اللواتي ذات قرابة معينة مع مالكهن هذه القرابة التي من شأنها ان تمنعهن من الزواج منه فانهن يعتبرن معتوقات. وهكذا فان اشترى احدهم أُمه او أخته فهذه تعتبر حرّة بكامل حقوقها.

وبين المعتوقة والمالك -صاحب الامر والنهي- توجد علاقة حقوق؛ فللمالك حقوق ميراثية وللمعتوقة واجب الاجلال والاحترام ومساعدة سيدها السابق.

والتشريع المختص بالعبيد ليس قديم العهد كبقية المصادر الأولى للاسلام، وانما هو حصيلة متأخرة نسبياً لجدل الفقهاء.

ففي النصف الثاني من القرن الاول كان الفقهاء ما زالوا يتناقشون ان كانت شهادة العبيد مقبولة شرعياً أم لا! "وقال شريح كلكم بنو عبيد وإماء (في شهادة العبيد) وأجازه شريح"[٥].

وهناك رواية بصدد هذه المناظرة التي حصلت بحضور القاضي شريح الذي كان يعتبر مثالا للقضاة. شريح الذي كان نفسه ابن أَمة دعم حقوق العبيد واقترح قبول شهاداتهم.

وفي التقارير الآتية من المصادر الأولى للقرآن والحديث نجد احكاماً متعاطفة مع العبد والعبدة، خاصة فيما يتعلق بعتقه كما ان سهولة عتق الأَمة أثرت كثيرا على مكانة الزوجة. فبين زوجات محمد كانت هناك أمات أعتقهن محمد وبعد ذلك تزوجهن. وقد عوملن معاملة مساوية للنساء الحرّات.

والقرآن وصّى كثيرا بتحرير العبيد اذ ذكر ان الطريق وعرة بين جهنم والجنة وعتق العبد يسمح للمؤمنين بعبور الطريق دون عناء "فلا أقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فكٌ رقبة" (سورة البلد).

ومن ناحية أخرى فان التقصير في أداء الفروض الدينية له نتائج ايجابية بالنسبة للعبد اذ ان القرآن يُوصي الذين أخطأوا وارادوا التوبة ان يحرروا عبيدهم: "وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتلَ مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودَيَةٌ مسلمة الى أهله" (سورة النساء).

وحتى في شهر رمضان ان لم يتبع المؤمن الاصول الدينية بتقوى وصرامة أي قيامه بالصيام والصلاة فانه مجبر في هذه الحالة إما ان يعتق عبداً أو ان يطعم جائعاً[٦]. وفي مناسبات أخرى يدافع القرآن بكلمات بليغة عن قضية تحرير العبيد كما ان الرسول يظهر عطفه الكبير على العبيد.

فالنبي ساهم في احترام العبد بمنع المؤمنين من استعمال كلمة العبد وان يستبدلوها بعبارة فتاي وفتاتي "لا يقلْ احدكم

عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي"[٧]. وقال ايضاً "من كانت له جارية فعالها فأحسن اليها ثم اعتقها وتزوجها كان له أجران"[٨].

وهكذا نرى ان افعال النبي مثل كلامه كانت حنونة تجاه العبيد. فأحد المؤمنين فاجأ عبده الشاب بجريمة الزنا مع احدى زوجاته وبدون ان ينطق كلمة يخصي عبده المذنب. ويذهب العبد التعس يشكو مصابه الى النبي الذي لايتردد ابداً بأن يعتق العبد بسبب قساوة المعاملة التي تلقاها من سيده.

هذا الموقف تجاه العبيد يذكرنا بالقانون المستعمل عند اليهود والذي يذكره كتاب الانجيل "اذا جرح أحدكم عين عبده أو خادمه لدرجة ان العبد يفقد استعمالها فانه يعتق" (الخروج ٢٦) وبنفس الاسلوب يوصي القرآن بمنح العبيد حريتهم ان هم لجأوا ليحتموا في بيوت المؤمنين ويعتنقوا الاسلام. وكتاب الانجيل يقول نفس الكلام "لا تُسلم العبد الى سيده ان هو التجأ اليك" (Deuteronome, XXIII,16).

جميع الامثلة التي ذكرت سابقا تبرهن ان المبدأ الذي كان ينظم وضع العبيد كان عطوفاً نسبياً ان قورن بانظمة أخرى فالوقائع التاريخية تثبت ذلك. وكذلك تثبته المكانة التي احتلها العبيد او سلالتهم في تاريخ الاسلام. فالنبي لم يتردد في تعيين عبده أُسامة قائداً على الجيش ليغزو فلسطين في السنة الثانية. وعمرو بن العاص غازي مصر أرسل عبده عبادة ليمثله عند حاكم مصر المهزوم. وعُبادة هذا بعد ان أكمل دوره كمبعوث سياسي مطلق التفويض عُيّن فيما بعد قاضيا في فلسطين.

وهكذا نرى ان عددا كبيراً من الشخصيات اللامعة في

التاريخ الاسلامي، من حكّام، قادة جيش، علماء، أدباء كانوا عبيداِ. ابن حزم العلاّمة الاندلسي كتب يقول "ولم يلِ الخلافة في الصدَر الاول من أمُّه أَمَةٌ حاشا يزيد وابراهيم بن الوليد ولا وليها من بني العباس من أُمه حرّة حاشا السفاح والمهدي والأمين ولم يلها في الاندلس من أُمه حرّة قط"[٩].

وهذه الحقائق التاريخية تشهد ان الأمات كن يعاملن معاملة حسنة وان التقاليد تطورت أكثر وأكثر فدمجت الأمات في اطار العائلة العربية.

ولو عاش ابن حزم الاندلسي في فترة متقدمة لكان بامكانه ان يُعبر بكلمات آكثر بلاغة وان يلاحظ ان اكثرية الطبقات الميسورة كانت تنحدر من سلالة العبيد.

واذا تأملنا المجتمع الاسلامي في حقبة معينة فاننا نلاحظ ثلاث سمات متميزة:

١ – امتداد وانتصار الاسلام في مناطق مختلفة حيث احتكّ المسلمون العرب بشعوب اكثر تحضرا من الغازين انفسهم.

٢ – منح الغازون العرب كرامة انسانية للعبيد إذ لم يترددوا في استيعابهم في عائلاتهم واضافتهم الى شجرة النسب العائلية.

٣– يعترف الاسلام بتعدد الزوجات والاستسرار (معاشرة غير شرعية) وحثّ اتباعه على التكاثر.

هذه العوامل الثلاثة أثرت على المنزل العائلي المتعدد الزوجات وسبَّبت الانحطاط المتزايد للمرأة وتفاقم وضعها.

وبالاضافة الى ذلك فان سهولة الطلاق والزواج من الأمة لايتطلب التعقيدات النسبية المطلوبة في الزواج من امرأة حرّة.

كل هذه الظروف شكّلت أرضية خصبة لتكاثر الزيجات

والطلاق وتأثيرها على الحياة الجنسية للنساء وعلى تدهور وانحطاط الاخلاق.

تأثير العبودية على وضع المرأة

"... قالت خولة بنت قيس كنا نكون في عهد النبي وأبي بكر وصدر من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تحاللن وربما غزلنا وربما عالج بعضنا فيه الخوص فقال عمر لاردتكن حرائر فاخرجنا منه إلا انا كنا نشهد الصلوات في الوقت"[١٠].

والخليفة عمر الذي طالما قيّد من حرية النساء الحرات أدخل الى الجزيرة العربية بسبب غزواته الحربية عدداً كبيراً من الأمات ذوات الذوق الرفيع. وهو نفسه كان يُقدم هؤلاء الأمات الفارسيات الى جنوده المنتصرين. وهو أيضاً كان يُقدّر ويتأثر بجمالهن. ألم يقل -حسب الروايات- "لا أجمل من أطفال الأمات لأنهم يجمعون نبالة العرب وأناقة الفرس"[١١].

واذا كانت الروايات تنسب للنبي كلمات استرضائية ورقيقة احيانا تجاه المرأة فان خلفاء محمد أبدوا العكس من ذلك فكانوا أكثر صرامة نحوها.

فالسبب الرئيسي لانحطاط المرأة هو فصل النساء عن الرجال وعزلة المرأة. ومن جراء هذه العزلة أوجدت وظيفة جديدة للمرأة في المجتمع الاسلامي. اذ كانت مهمتها البحث عن الجميلات لغرض الزواج. فقصص الادب العربي تصف -في المجتمع القديم في المدينة في بداية عهد السفيانيّين- بيت المرأة العجوز حيث يتوافد عليها الشبّان الراغبين في الزواج. كانوا يأتون ليطلبوا من العجوز ان تتفحص لهم خطيباتهم وتخبرهم

عن رأيها فيما بعد(١٢). وهذه العادات تختلف عما كان سائداً في زمن النبي. فمحمد نفسه ذهب الى بيت الأرملة ام سلامة ليتفاهم معها ويتزوجها فيما بعد.

ولكن يجب ان لانعمم سريعا ولا ان نفكر ان عزلة النساء كانت قانوناً مطلقاً يطبق على كل النساء. اذ ان الأمات بسبب وضعهن الخاص كن مستثنيات من التزام العزلة. فهن -اي الأمات- كنّ يُعرضن أمام الجنود لتقدير جمالهن وحيث كان كل جندي مُحارب يأخذ حصته من غنيمة الحرب. وفي بعض الحالات كن يعملن كبنات هوى في بعض المدن كمكة والمدينة(١٣).

ونلفت الانتباه الى ان الاخلاق السائدة في تلك الفترة لم تكن تستهجن رؤية الشبّان وهم يتراكضون لمغازلة الأمات.

ذكرت سابقا ان الخليفة عمر منع منعا باتا الأمات ان يرتدين ملابس كملابس الحرّات. ويذكر المؤرخون في المجتمع العربي القديم انه من جراء قانون الخليفة عمر هذا فان جميع الأمات كن يخرجن عاريات الرأس وأحياناً عاريات الذراع(١٤).

وفي فترة لاحقة نُوقش موضوع هندام العبدات بحماس كبير وفي بداية عهد السفيانيّين في العراق كان من رأي العلاّمة المسلم الحسن البصري ان على الأمات أيضاً ان يلبسن الخمار - "وحكى عن الحسن البصري انه كان يُوجب الخمار على السرية يعني الأمة التي اتخذها الرجل لنفسه سواء كانت جميلة أو شوهاء وأما أمهات الاولاد فحكمهن حكم الحرائر في لباسهن"(١٥).

وفي رأي علامة آخر قال يجب التمييز بين الأمات الجميلات

والقبيحات، فعلى الجميلات ان يرتدين الخمار أو الحجاب بينما القبيحات فلهن الاختيار... "وفرق ابن القطان في كتابه المسمى بـ«النظر» في هذا بين الإماء الحسان المصونات المقصورات الحاملات من الجمال أكثر ما تحمله الحرائر وبين الأماء المبتذلات فمال لوجوب التسترعلى من كان منهن بالصفة الأولى وسقوطه عن من كان بضد ذلك"[١٦].

والزمن الذي كانت فيه تُبحث هذه الآراء والقوانين كان عصر الفتوحات الاسلامية حيث امتدّ الاسلام الى المناطق الجديدة ففي هذا العصر تمّ فتح والاستيلاء على شمال افريقيا حتى المحيط وجزر البحرالابيض المتوسط. من جهة ثانية فان الاسلام اخترق افغانستان وتابع الفاتحون المسلمون تقدمهم المنتصر حتى سمرقند.

وامتدت هذه الفتوحات في آسيا حتى وصلت الى حدود الصين والى اوروبا حتى المحيط الاطلسي. وفي بداية القرن الثامن الميلادي اقتحم العرب جبل طارق واحتلوا قسما من اسبانيا التي كانت من ممتلكات القوطيين. وخلاصة القول ان الاسلام سيطر على مناطق ممتدة ما بين القوقاز والخليج الفارسي والهند حتى المحيط الاطلسي.

ومن جراء هذه الغزوات أو الحروب امتلك العرب عددا كبيرا لايستهان به من الأمات والعبيد. وهكذا نرى ان اكثرية الرجال في المجتمع الاسلامي وبغض النظر عن انتمائهم الطبقي كانوا يمتلكون الأمات.

"كتب الخليفة هشام بن عبد الملك الى عامله في افريقيا:

أما بعد فان أمير المؤمنين لما رأى ما كان يبعث به موسى بن

نصير الى عبد الملك أراد مثله منك وعندك من الجواري البربريات المالئات للأعين الآخذات بالقلوب... ما هو معوز به لنا بالشام فتلطف في الانتقاء وتوخَ أنيق الجمال وعظم الاكفال وسعة الصدور ولين الاجساد ورقة الانامل... ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ فانهن يتخذن أمهات أولاد"[١٧].

وتطري الروايات الادبية جمال الأمات من خلال افواه الخلفاء الأمويين إذ قال الخليفة عبد الملك بن مروان: "من أراد الباَة فعليه بالبربريات ومن أراد الخدمة فعليه بالروميات ومن أراد النجابة فعليه بالفارسيات"[١٨].

وان كان الحكام يتصرفون تماماً كبقية افراد الشعب فان اللغة نفسها كانت تحكى في كل مكان فكل رجل كان يتمتع باقتناء جارية. وهنا يروي الجاحظ قصة الجندي الذي اشترك في غزوة خراسان: "خرج رجل مع قتيبة بن مسلم الى خراسان وخلف امرأة يقال لها هند من أجمل نساء أهل زمانها فلبثت هناك فاشترى جارية اسمها جمانة... وكانت له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية موقعا حسناً، فأنشأ يقول:

ألا لا أبالي اليوم ما فعلت هند
اذا بقيت عند الجمانة والورد
شديد مناط القصرتين اذا جرى
وبيضاء مثل الرئم زندها العقد
فهذا لايام الهياج وهذه لحاجة
نفسي حين مصرف الجند

فبلغ ذلك هنداً فكتبت اليه:

ألا أقره مني السلام وقل له
غنينا بفتيان غطارفة مرد
فهذا أمير المؤمنين اميرهم
سبانا وأغناكم اراذلة الجند
اذا شاء منهم ناشيء مد كفه الى
كبد ملساء أو كفل مهد[١٩]

– هذه الابيات الشعرية اصبحت فيما بعد أدباً كلاسيكياً في كتب ادب العرب –

ومن الجاحظ ننتقل الى الشاعر المبرّد الذي يقول على لسان أمير: "قال مسلمة بن عبد الملك أني لأعجب من رجل قص شعره ثم عاد اطاله ورجل شمّر ثوبه ثم عاد أسبله ورجل تمتع بالسراري ثم عاد الى المهيرات"[٢٠].

وفي نفس هذه الحقبة الزمنية التي تكلم فيها الامير بهذه العبارات نجد آخراً يتنهد ويشكو هجر اطفال السراري ويتمنى ان يعيش في بلد لايرى فيه اطفالاً متروكين:

ان اولاد السراري
كثروا يارب فينا
رب ادخلني بلاداً
لا أرى فيها هجينا[٢١]

هذا العصر الذي شجع على تملكك السراري كان أيضاً مرتعا خصبا لعقد الزيجات وفكّها بالطلاق. فيحكى ان رجلا تزوج من مئة امرأة: قال المغيرة بن شعبة حصنت تسعاً وتسعين امرأة ما أمسكت واحدة منهن على حب ولكني احفظها لمنصبها[٢٢].

وان رجلاً معروفاً طلّق زوجته لسبب تافه وهو انها رفضت التفاحة التي قدمها لها زوجها بعد ان كان أكل منها[٢٣].

وصدم الكاتب م. لمنس من تراخي العلاقات الزوجية وانحطاط الاخلاق فكتب يقول: ان روايات السنة ذكرت ان المغيرة بن شعبة قد سجّل رقماً قياسياً من حيث الزواجات والطلاقات. ويُقال بانه تجاوز الى حد بعيد الحسن، الابن الأكبر للخليفة علي، إلا ان المؤرخين لا يتفقون على العدد الذي أتاح للثقفي هذه الشهرة الغريبة. فهم اي المؤرخين يتكلمون عن ٩٩، ٣٠٠ أو ألف عقود زواج تمت منذ مجيء الاسلام، هذا دون ان نتحدث عن الزيجات السابقة على الاسلام. إلا ان معاصري المغيرة لم يروا في بدعة الطلاق اي شيء خارج عن المألوف. والكل استغلّ عدم دقة قوانين الزواج الواردة في القرآن. ولكن الثقفي اختير هنا لكي يكون كبش الفداء من قبل الشيعة المعادين للأمويين الذي كانوا متسامحين ومتساهلين تجاه ابن الخليفة علي[٢٤].

نذكر ان الزواج السياسي كان يلتزم به ويحترم. فالمغيرة نفسه ينسب اليه عدد مثير من الزواجات كان يعلن انه يحافظ على زوجاته لأسباب تتعلق بمنزلتهن الاجتماعية. وكذلك كان الكثير من قادة الجيش ومديري الشرطة يتزوجون تلبية لرغبة السلطان حتى يكتسبوا مكانة سياسية[٢٥].

وهكذا فان سهولة الطلاق، والزواج السياسي وتذوق الاستسرار وأخيراً العزلة المتفاقمة للحرّات، جميع هذه الاسباب ادت حتماً الى التأثير بشكل مريع على وضع المرأة، اذ ان الحرّات عوملن بازدراء وكن الضحايا المشؤومات للتفضيل

الذي حظيت به السراري.

ويُعبّر الجاحظ، الذي عاصر تقريباً هذه الحقبة، بكلمات واضحة عن سبب تفضيل الرجال للإماء، يقول: "قال بعض من احتج للعلة التي من اجلها صار اكثر الأماء احظى عند الرجال من اكبر المهيرات، ان الرجل قبل ان يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة فاقبل على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة والحرّة انما يستشار في جمالها النساء والنساء لايبصرن من جمال النساء وحاجات الرجل وموافقتهن قليلا ولا كثيراً".

ونحن نعتقد ان تفضيل الأمات على الحرّات كان معمولا به في كل العصور وفي كل البلاد المسلمة حيث كان الحجاب مستعملاً.

يقول البروفسور هورغرونج: "عندما تسأل رجلاً من مكة عن عاطفته الحقيقية يعترف بان قلبه لا يميل الى أي امرأة من مكة وانه بالتأكيد يفضل الأمة"[٢٦].

وفي مصر وقبل الغاء تجارة الرقيق كان الرجال يفضلون اختيار زوجاتهم من الرقيق. ويجب هنا ذكر ان هذا التصرف كان ينطبق فقط على الرجال من الطبقات الثرية. لأن الفقراء كانت لهم حياة مختلفة وقوانين تفرضها الحاجة الاقتصادية.

وأهم سبب ممكن ان نعطيه لتفضيل الزواج من الأمات على الحرّات كان وما يزال نفس السبب: امكانية رؤية الأمات والتعرف عليهن.

غوستاف لو بون استعار من إ. آبوت الكلمات الآتية التي تعبر جيداً عن انتشار هذه العادة.

"يقول أبوت: كانت العبودية امرا اعتياديا في البلاد المسلمة فلم تكن محتقرة فأمهات جميع سلاطين القسطنطينية – خلفاء الاسلام- كن من الأمات وهؤلاء السلاطين كانوا فخورين بذلك".

والمماليك الذين حكموا طويلا في مصر كونوا عائلاتهم عن طريق شراء أطفال القوقاز وتبنّيهم عند بلوغهم سن الرشد.

وغالبا ما كان اقطاعي مصري كبير يربي ويعلم طفلا عبدا وعندما يكبر يزوجه الى بنته ويقوم مقامه بكل الحقوق.

وفي القاهرة كان المرء يقابل الوزراء وقادة الجيش والقضاة الذين في شبابهم بُيع الواحد منهم بـ"ألف أو ألف وخمسمائة درهم فرنك تقريبا"(٢٧).

وخلاصة القول ان الرجل في ذلك الزمن، زمن ازدهار تجارة الرقيق كان يواجه آلاف العراقيل لأن يتعرف على حرّة ويأخذها كزوجة وبالعكس فانه كان من السهل جدا ان يتعرف على أمة.

وفي نفس الوقت فان الأب الذي يزوج ابنته الى رقيق من بيته فانه ينظر مليا الى مصلحة ابنته التي على الأقل تتعرف على زوجها المقبل. وهكذا فان كثرة الزيجات من الرقيق هي نتيجة وردّة فعل ضد عزلة النساء التي كانت مطبقة بصرامة على الحرّات.

لنترك الآن المجتمعات العصرية ولنرجع الى المجتمع القديم، لنلق نظرة على عصر العباسيين.

تقدم كتب الادب العربي صورة رائعة عن المرأة في عصر العباسيين حيث كانت تلعب دوراً بارزاً في المجتمع. فكانت هناك المغنيات والشاعرات والنساء ذوات الجمال الخارق.

وقيل ان قسماً من كتاب ألف ليلة وليلة كتب في عصرهم.
هذا العصر الذي اندمجت فيه شعوب وأجناس مختلفة في بغداد، وقد ساهمَ هؤلاء كثيراً في الحضارة العربية بدمائهم وعبقريتهم وعلومهم.

ويقول بيرون Perron [٢٨] "ان عصر العباسيين شهد قمة استغلال العبيد وبصورة خاصة طبعاً استغلال الأمة. كان عهدهم عهد الأمات الجميلات اللواتي كن يُشترين من تجار الرقيق أو كن أمات سجينات حرب -أختطفن أثناء الغزوات- أمات أُشترين بسبب أغنية أنشدت باداء جميل او بالقاء ابيات من قصيدة مشهورة، او من نظرة عابرة ولحظة اعجاب لمشية رشيقة فيها كل الاغراء، من قامة جميلة وووركين متناسقين. والرجال كانت تشتري هذه النسوة دون تفكير بثمنهن فلا أحد يحسب حسابه وتكفي رغبة تملك الأمة والتلذذ بها. كانت هذه عملية تجارية حيث تباع الأمة وتمتلك Le jus untendi et abutendi. [٢٩].

ووصلت درجة السلوك الاجتماعي -باستثناء نساء الطبقة الفقيرة- الى حد انه تواجد في ذلك العصر صنفان من النساء. صنف مُبعد أو معزول وبعيد عن أضواء التجارة مع الرجال -هنا ايضاً باستثناء القريبات- وصنف آخر وهن اللواتي كن يختلطن في مجتمع الرجال وحاضرات حفلات تجمع الاصدقاء.

الصنف الاول من النساء كن غالبا أقل ثقافة وعلما وأقل طرافة من نساء الصنف الثاني اللواتي كن الزوجات المحظور عليهن الخروج إلا في حالات خاصة بسبب الاعراف السائدة حينئذ. أما الصنف الثاني وهن الأمات أو الجاريات فكن فاتنات

المجتمع بحضورهن الأخّاذ في طريقة غنائهن ومواهبهن الموسيقية وأحاديثهن اللبقة.

فالمجتمع العباسي هذا يذكرنا بالمجتمع اليوناني القديم ويحق لنا هنا ان نستشهد ببول جيد في كتابه عن حياة المرأة اليونانية إذ يقول: "اذا كان الرجل يعيش دائما خارج المنزل فان المرأة بالعكس لم تكن تستطيع الخروج من البيت. فكان محظوراً عليها حضور المسارح او المحاضرات او حتى الوجبات الشعبية، وأحيانا لم يكن مسموحا لها بمشاركة الوجبات العائلية اذا تواجد اصدقاء الرجل بين المدعويين" [٣٠]. ويضيف بول جيد في الكتاب نفسه "ومع هذا كانت هناك فئة من النساء معفيات من ضغط الاعمال المنزلية فهذه النسوة كن يستطعن الاختلاط بالرجال ويشاركنهم أعمالهم وأوقات لهوهم. هذه كانت فئة المحظيات اللواتي كن على درجة عالية من الثقافة ويتساوين مع الرجال في العلم والمعرفة".

واذا كانت الأمات معفيات من شرف وعراقيل العزلة المفروضة على الحرّات فيجب ان لانندهش من وجود بعض أمات الخليفة والنبلاء، اللواتي كن خاضعات للعزلة لانهن كن يعتبرن المفضلات والمقربات عند الخليفة ومرتبتهن كانت تقريبا كمرتبة الزوجات. وهن اي الأمات كن غالبا ما يقدمن كهدايا من قبل الخلفاء أو السلاطين الى قادة جيشهم وانصارهم. وبول جيد يشبه العصر العباسي بالعصر الروماني فيقول: "فنرى ان حكام الامبراطورية الرومانية يدخلون رسميا المناطق التي يحكمونها متبوعين بالسرائر التي قدمها الامبراطور نفسه لهم" [٣١].

ويظهر ان التمييز بين الحرّات والسرائر من وجهة نظر العزلة كان يمارس في الفترات اللاحقة على الاقل للنصف الأول من القرن الثاني للهجرة. فالأمات كن يخرجن عاريات الرأس في زمن الخليفة عمر. وفي زمن الامويين ميّز فقهاء البصرة بين الأمات اللواتي استطعن الخروج عاريات الرأس والأخريات اللواتي لم يستطعن.

وفيما بعد عرفنا من خلال نصّ ادبي ان المنصور طلب من أمتين جمليتين ان يرتدين الخمار على طريقة الحرّات. "مما يحكى عن ابي العباس السفاح قال بعض مواليه لعمري به ليلة وانا صغير وهو على سريره مع أم سلمة إذ مرت به جاريتان صغيرتان لم أر أحسن منهما قط اختمرتا كما تختمر الحرائر فاستدعى بهما وقال لهما أإماء أم حرائر فقالتا أماء، قالتا إن ذلك شأننا في بلادنا وكانت أم سلمة وصتهما بذلك قصداً الا ينظر الى محاسنهما"[٣٢].

وعندما بدأت العزلة تطبق على الأمات كان سببها الاعتبار المتزايد لهن ولهذا اصبحن يعتبرن قليلاً قليلا من فئة الزوجات.

وفي بداية عصر الاسلامي كان مجتمع المدينة ينظر شذراً الى اطفال الجاريات[٣٣] ولكن فيما بعد اخذت الناس تتباهى بصفاتهم الحميدة والمتميزة ومن جراء ذلك بدأ التكاثر السريع للتزاوج بين أجناس بشرية مختلفة وميل متزايد لمنح الجارية مكانة الزوجة مع كافة الاعتبارات من واجبات وحقوق. وفي وقت لاحق اخذت العبودية مجرى بعيدا عن معناها البدائي اذ ان مصدرها ما عاد يأتي من الحروب فقط بل ايضا من تجارة الرقيق.

وبدأ التزود بالجاريات لتحويلهن الى زوجات شرعيات لهن كرامة الحرّات وطبق عليهن نظام العزلة.

الهوامش:

١ – الشاعر عنتر، واحد من هؤلاء العبيد
٢ – تفسير الطبري الجزء ١٨ ص ٥١
٣ – صحيح البخاري الجزء ١ ص ٣٧٥
٤ – حسب اقوال الشافعي
٥ – صحيح البخاري الجزء ٣ ص ٥٧
٦ – نفس المصدر الجزء ٢ ص ٥٧
٧ – التيجاني رقم ١٢٦
٨ – طبقات ابن سعد الجزء ٨ ص ٢١٧
٩ – التيجاني رقم ١٢٦
١٠ – الجاحظ ص ١٢٢
١١ – حصن الأسوة ص ٩٦ طبعة القسطنطينية
١٢ – التيجاني رقم ١٢٦
١٣ – نفس المصدر
١٤ – نفس المصدر
١٥ – نفس المصدر
١٦ – نفس المصدر
١٧ – الجاحظ ص ٢٢٩
١٨ – مبرد التيجاني
١٩ – نفس المصدر
٢٠ – الجاحظ ص ٢١٩
٢١ – ابن قتيبة المعارف ص ١٠٥
22- V. Lammens, Ziad Ibn Abihi
٢٣ – العقد الفريد الجزء ٣ بمناسبة زواج الحجاج

٢٤- الجاحظ، الرسائل ص ١٦٦ مطبعة القاهرة
٢٥- هورنغرونج مكة، الجزء ٢ ص ١٣٢
٢٦-غوستاف لو بون حضارة العرب ص ٣٩٦
٢٧-النساء العربيات قبل الاسلام ومنذ الاسلام ص ٥٣٦
٢٨- بيول جيد، دراسة عن وضع المرأة الخاص ص ٦٨
٢٩-نفس المصدر ص ٥٦٤
٣٠- التجاني، العقد الفريد
٣١- العقد الفريد الجزء ٣
٣٢- المصدر السابق.
٣٣- المصدر السابق.



الفصل الرابع
المرأة ومبادىء القانون الاسلامي
وتأثيرها الممارس على النظام الابوي عند العرب

الاسلام كما هو معروف، ولد في مجتمع بطريركي. وسلطة الاب التي مصدرها العرف والعادات كانت الى حد ما تُلطَّف من قبل العلاقات العائلية. ثم تحولت مع مجيء الدين الجديد الى قوة جامدة وعنيدة لاتناقش: الالوهية. فالله تجسد رغباته وإرادته في القرآن. فمجموعة القوانين القرآنية تعطي جميع الوصفات لتصرفات المسلمين. فعلم الدين؛ الاخلاق وقانون العقوبات الخاص والعام كلهاموجودة في القرآن.

ومحمد الناطق الرسمي باسم الألوهية، كافح لحماية المرأة ضد عادات الوثنية. وبدون ان يجعلها متساوية مع الرجل اعطاها بعض الحقوق التي لم تنقذها من انحطاط متزايد. فوضع المرأة استمر في التدهور تحت تأثير ظواهر اجتماعية مختلفة على الرغم من ان النبي حسّن وضعها نظرياً.

هذا وعلى الرغم ان الاسلام اعطى للمرأة شخصية خاصة بها. الا اننا نؤكد ان المرأة بعد الاسلام وُجدت في وضع اكثر دونية عما كانت عليه قبل الاسلام. والشخصية التي اعطاها محمد للمرأة لم تستطع ان تتطور وراء نطاق معين لأن الألوهيه ارادت للمرأة أن لاتتخطى القوانين المنزلة من السماء. وبالعكس ففى المجتمع البدائى كان كل واحد ينمو ويتطور بحرية تجاه الهدف الذي يصبو اليه، بكل صفاته ومميزاته حسب الظروف

الخاصة والعامة التي تحيط به. والمرأة العربية قبل الاسلام- بالرغم من افكارنا العصرية اليوم التي تصورها كشيء - كانت في الحقيقة شخصاً يختلف عن الرجل وما كانت تعاني من نتائج سلبية ومؤسفة.

بيد أن علينا ان نأخذ بعين الاعتبار مبدأ القانون الجديد للعرب: أي القرآن الذي يعتبر تقدماً في تطور الاعتراف بحقوق المرأة على الرغم من ان التطورات اللاحقة في المجتمع الاسلامى أخذت مجرى معادياً وسلبياً تجاه المرأة.

المرأة وقانون الوراثة

معظم الروايات التي ترسم لنا صورة المجتمع العربى قبل الاسلام تقدم لنا مجتمعاً حيث العائلة قائمة على تفضيل الآباء الذكور. فالمرأة مبعدة عن عائلتها الأصلية لتنضم الى عائلة زوجها وهذا الآخر يكون قد حصل عليها اما بالشراء او بالأسر. ومنذ لحظة انضمامها الى عائلة الزوج تصبح المرأة قسماً من الميراث العائلى للزوج الذي له الحق ان - يبيعها مثلما كان قد اشتراها من قبل.

"يا أيها الذين امنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولاتفضلوهن لتذهبوا ببعض ماآتيتموهن- قال كانوا اذا مات الرجل كان اولياؤه احق بامرأته ان شاء بعضهم تزوجها وان شاؤوا زوجوها وان شاؤوا لم يزوجوها" (1).

وبالطبع فان هذه العواقب المتطرفة لم تكن تمارس كثيراً لكنها كانت نتيجة وضع المرأة التي لم تكن تمتلك حق الميراث. واكثر من ذلك، بما ان المرأة لم تكن تشارك مشاركة فعلية في

الحروب أو الغارات- التي هي احدى مصادر الثروة في ذلك العصر- فلم يكن لها الحق ان تكسب او ان تربح اى شيء من مغانم الحملات العسكرية أو من اعمال القرصنة.

كانت ردة فعل النبي ضد هذه المفاهيم ان حاربها. فسياسياً ألغى الاختلافات القبلية ليؤسس الوحدة الوطنية المبنية على الايمان وفي نفس الوقت قلّل من أهمية قيم العادات الذكورية المتواجدة في القبائل والتي ما كانت تعترف بالرابطة النسائية.

وحق الميراث عند قدماء العرب كان يعتمد على مساهمة الرجال فى اكتساب الثروة. ومنها ايضا قدّم محمد فكرة أدبية بشأن حق الميراث، فيرث المتوفي كل من كانت له علاقة حُبية أو عاطفية معه. وهكذا فان شخصية المرأة من الآن فصاعداً مرتكزة على حقها بان ترث قسماًمن الأملاك. وهكذا اصبح يحق لها ان ترث إما من عائلتها الابوية أو من عائلة زوجها - علاقة الرحم- إلا ان النظام القرآني لم يخلّص المرأة من كل عجزها الميراثي قبل الاسلام وانما اعطاها قسما منه فقط، أي نصف ميراث الرجل. وعلى الرغم من ذلك فانه كان تقدماً ملحوظاً ومهما. وكما يقول السيد ميلو، "كان اصلاحاً جريئاً ونستطيع ان نعتبره بحق وحقيق كأحد أجمل وأشرف أمجاد محمد[٢] وهذا الحق المنقوص أو غير الكامل الذي أعطي للمرأة يذكرنا ببعض قوانين الغرب التي تتحيّز للذكر على حساب الأنثى بما يتعلق بالميراث. يقول بول جيد "فالقوانين التى تختلف في الذهنية والهدف تلتقى وتتفق على هذه النقطة بشكل مثير: ففي البلاد الكاثوليكية مثل انكلترا البروتستانية فان الابنة مستبعدة من قبل الابن والاخت من قبل الأخ. كما

ان احكام قوانين «مودين» حصة النساءالى نصف حصة الرجل. وهذه القوانين متواجدة في القانون التركي وفي مختلف القوانين الاسكندنافية. وأما في روسيا فان الفتاة ترث ٨/١ فقط من قيمة الأثاث والفرش و١٤/١من قيمة العقار. وفي أماكن أخرى ترث الفتاة قسماً من الفرش وفي مناطق ثانية فان حقها من الميراث يتحدد بحق الانتفاع من الممتلكات أو العقار. وأخيراً فان القوانين لم تستبعد المرأة من الميراث مباشرة لكنها في نفس الوقت شجعت وسمحت على استبعادها من الميراث باعطاء الصلاحية للقانون عن طريق تأجيل سن البلوغ الى أجل غير محدد وتخلّي الفتيات ذات المهر عن حقهن فى الارث في المستقبل" [٣].

وأما الشريعة الاسلامية فانها أعطت المرأة تعويضاً، فان هي لاترث إلا نصف حصة الرجل فلها من جهة ثانية حق المهر وان يقوم الزوج بالنفقة. وفي نظر مشرّع القوانين الاول كان هذا مقياساً مخففاً وضرورياً لانتصار مبدأ العدالة والذي سعي النبي اليه بكل حماسة.

عجز المرأة أمام القانون

العجز المقترن بالجنس يظهر ايضاً في الشهادة [٤] فشهادة الرجل الواحد تعادل شهادة امرأتين الا في الحالات التي تكون فيها المرأة هي الوحيدة القادرة.

ونحن لانفهم جيداً الدوافع التي حفزت مؤسس الدين الاسلامي على ان يصوغ مثل هذا العجز. فالمجتمع القديم قبل الاسلام لم يكن مُلمّا بقواعد الحياة العامة حتى يتطرق الى مسألة

الشهادة.

ولكن حياة المجتمع القديم قبل مجيء الاسلام قد تفسّر الى حد ما نزعة محمد الى ازاحة شهادة النساء. والواقع ان النسوة كن مكرهات على البقاء في المنزل يتدبرن امور البيت ووحدهم الرجال كانوا على صلة واحتكاك مع الآخرين فهم القادرون على استيعاب وفهم هذه العلاقات.

ومهما تكن قيمة التفسير هذا أو تبريره فالحقيقة تبقى ذات دلالة على أن تفوق الرجل كان دائماً وفي كل مكان على حساب المرأة حتى في الغرب نفسه وفي حقبة زمنية قريبة نسبياً "في زمن مدام سيفنه ومدام لافايت يذكر بول جيد ان خبيراً قانونياً تجرّأ ايضاً ان يكتب ان شهادة ثلاث نساء ليس لها قيمة اكثر من شهادة رجلين" [٥].

وعجز المرأة أو قصورها يترجم ايضاً بالقيمة التى تعطى لها كثمن دمها – في حالة القتل – في القانون الجزائي. فالقيمة هنا ايضاً نصف قيمة الرجل. هكذا كانت القاعدة عند قدماء العرب. فقيمة الشخص تقاس بقدرته الحربية التي هي مصدر مباشر للثروة.

القبول أو الموافقة

هناك تقدم ملحوظ آخر حققه الاسلام وهو أنه أعطى المرأة بعض الحرية في قدرتها على الرفض أو قبول الزوج". تأيمت خنساء بنت خذام من زوجها فزوجها أبوها وهي كارهة فأتت النبي صلم فقالت يا رسول الله ان أبي تفوت على فزوجني ولم يشعرني قال لانكاح له انكحي من شئت" [٦].

فقبل الاسلام كان ابو الفتاة أو المسؤول عنها هو الذى يقرر ويختار الزوج لها.

ومع هذا فان الروايات تشير انه في بعض الاحيان كان يؤخذ برأي الفتاة. وعلى كل حال فان النبي لم يقبل بان تتزوج الفتاة ضد ارادتها وأعلن إلغاء عقد الزواج الذي يجري بخلاف رغبة الفتاة ولكن يجب التمييز بين الفتاة القاصرة، اما بسبب صغر سنها او عذريتها أو تخلفها العقلي وتلك التي تكون قادرة. فالأولى ممكن ان تخضع لحق "الجبر" أو الاكراه فاهلها لديهم الحق ان يفرضوا عليها زواجاً أو ان يرفضوه وبالعكس فان الثانية التي تصبح راشدة فيما بعد تستطيع ان تطلب من المحاكم المدنية الغاء عقد زواجها الذي عقد عندما كانت قاصرة وهذا من ضمن حقها في الاختيار.

ونضيف ان الفتاة الراشدة على الرغم انها حُرّة في اختيار زوج لها لكنها لاتستطيع استغلال هذه الحرية بأن تتزوج رجلاً لايناسب مقام أو منزلة عائلتها. وفي هذه الحالة فان الاشخاص المهتمين بالأمر هذا – يستطيعون الاعتراض ووقف زواج المرأة. ويرجع أصل هذه القاعدة الى فترة ما قبل الاسلام حيث كانت تُعطى اهمية كبرى لنقاوة الدم ونبل المنشأ. وهي احدى مخلفات الماضي التي كانت تشجع على الزواج اللحمي[٧]– زواج الاقرباء– الذي كان – يمارس عند العرب.

وهي ايضاً – أي عادة زواج القرابة– ممكن ان تكون من مخلفات الوضع البدائي لنظام الامومة، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان المجتمع الابوي عند قدماء العرب كان يعتقد ان الطفل يرث صفات خاله وهذا – اي الخال كان مهتماً بصفات صهره.

الشروط الواردة التي يمكن ان تذكر في عقد الزواج والحقوق والواجبات المتبادلة بين الازواج

وأخيراً وبعد قبول المرأة فان الزواج هو عقد يتم بواسطة المهر. وسوف نحلل صفات المهر نظراً للأهمية التي تعطى لهذه المؤسسة التي حسب معرفتنا لم تُدرس حتى الآن بشكل نقدي وجدّي.

نستطيع ان نؤكّد ان الزواج هو عقد بين طرفين: المرأة والرجل وفيه شروط اتفق عليها الطرفان[٨] ووصّى محمد بطريقة واضحة، باحترام كل الشروط الخاصة والمدرجة في عقد الزواج[٩] وبطبيعة الحال فان هذه الشروط المدرجة من قبل الطرفين يجب ان لا تكون في طبيعتها معارضة للقوانين المتواجدة أو ان تكون ضد جوهر الزواج. وهكذا فانه ليس بالمستطاع عقد زواج دون مهر أو عقد زواج مؤقت.

ولكن يمكن عقد قران بشرط احترام "الزواج الأحادي" أو اعطاء المرأة حرية الخروج عندما تشاء أو ان لا تسكن في منطقة معينة وامكانية الحصول على مثل هذه الشروط ما هي الا طريقة لتحسين وضعها والنظام القرآني عالج الى حدّ ما قساوة القوانين المطبقة على المرأة.

ولندرس الأن عواقب عقد الزواج على الازواج أنفسهم، علينا هنا ان نتذكر الأعراف الرصينة والعادات عند قدماء العرب حتى نستوعب أحسن التوصيات أو القوانين التى نصَّ عليها محمد. ففي الفترة ما قبل الاسلام لم تكن وظيفة القاضي العام ذات اهمية تذكر فالزوج كان يأخذ على عاتقه تأديب

زوجته وفي بعض الاحيان يستغل حقه هذا ويعاقبها بقسوة. فعمل محمد على إزالة سلطة رب الأسرة وعهد فيها إلى ممثلي السلطة الآلهية الذين وحدهم يستطيعون تنفيذ ارادة الله بتطبيق العقاب على المذنبين. ولكن علينا ان الا ننسى ان الديانة الاسلامية تأثرت بذاكرة العرف والتقاليد التي كانت شائعة في العهود السابقة. وبعيداً عن أن ينزع من رب الأسرة جميع سلطاته فان النبي ترك له سلطة يمارسها على الذين يوجدون تحت رعايته أى نساءه وأطفاله: "فاتقوا الله في النساء فأنكم اخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم احداً تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبرح ولهن عليكم كسوتهن ورزقهن بالمعروف."

وهكذا في بعض الحالات يستطيع الزوج اصلاح زوجته عندما يكون تصرفها يستحق العقاب قانونيا. ولكن حق العقاب الذي يعطيه القانون للزوج هو محدود. فهو اي العقاب اما ان يكون بالهجر القصير أو المؤقت واحياناً يكون بالضرب غير المبرح. فالديانة الاسلامية تعتبر المرأة قاصراً كالطفل والزوج كالأب الذي يستطيع في بعض الحالات ان يصلح نزوات طفله بان يعاقبه بالضرب الجسدي غير المبرح. إلا ان النبي الذي كافح بنشاط ضد قساوة الازواج تجاه زوجاتهم لم يسمح بالعقاب الجسدي إلا للأسباب الجدية كالشك في خيانة الزوجة.

أما فيما يتعلق بالحقوق والواجبات بين الازواج فانها مرتكزة على هدفين: ١) التناسل ٢) والحفاظ على العائلة فعلى المرأة ان

تكون وفية لزوجها وان تطيع وترضخ لرغبات زوجها الجنسية إلا انها غير مجبرة ان تخضع لرغباته غير الطبيعية التى قد تزعجها أو التى تمنع الانجاب. وفي المقابل فان المرأة لها الحق ان تطالب زوجها بالنفقة وان تعامل بنفس المستوى الذي كانت تتمتع به في بيت أهلها.

وبالاضافة الى ذلك فان على الزوج ان يؤدي قسماً من واجباته الجنسية نحو زوجته. وأما اذا كان متعدد الزوجات فيجب ان يكون عادلاً تجاههن وان كان احادي الزواج فيجب عليه القيام بدوره الجنسي طبقاً للقانون ويختلف الفقهاء في تقديرهم لكثرة هذا الواجب أوالفرْض.

ولكن حق الزوج في طاعة زوجته له لايعني دائما ان الزوجة مجبرة ان تسكن في المكان الذي يتواجد فيه الزوج. فمكان اقامتها يجب ان يُوفر الرفاهية الضرورية للزوجة وهي لها الحق ان تلجأ إلى القانون لحمايتها ضد ارغام الزوج.

أما المبدأ الثاني اي ادارة وحفظ المنزل فينجم عنه حق المرأة في النفقة وحق الزيارة والخروج من المنزل وأخيراً واجب المرأة في ادارة وتدبير المنزل. ومتى تّم الزواج واصبحت المرأة مستعدة لأن تتحمل مسؤولية مشاركة الحياة المنزلية لزوجها فعلى الزوج ان يدفع النفقة التي تقدر قيمتها حسب وضع الزوج المالي. وهي – اى النفقة – تشمل المنزل المفروش؛ والغذاء المناسب والكسوة التي تناسب متطلبات الطقس والتقاليد السارية وملحقات أخرى كأدوات التجميل كالعطور مثلا وأخيراً دفع ثمن العلاج الطبي في حالة المرض.

واذا كانت المرأة لا تستطيع اللحاق بزوجها الغائب فيجب

عليه ان يلتزم بمصروفها. وان احتاجت الزوجة شراء مايلزمها فانها تستطيع ان تحصل من القاضي على السماح بان تفعل ذلك اي الشراء على حساب زوجها الغائب أو ان تبيع اثاث البيت. وحتى في حالة اعتقال الزوج فان الزوجة لها نفس الحقوق.

ونستطيع ان نؤكد ان الزوجة الحّرة في ابداء عاطفتها نحو زوجها ليست مجبرة قانونياً ان تتحمل سوء حظ زوجها االعاثر ومشاركته في الضراء. واحياناً تستطيع ان تتصرف كدائنة أو غريمة له.

وحق النفقة الذي هو نتيجة الزواج يستمر مبدئياً مادامت العلاقة مستمرة، واثناء فترة رضاعة الطفل ان طُلقّت الزوجة. ولكن توجد بعض الحالات التي لايكون الزوج مجبراً على دفع النفقة. فمثلاً في حالة معرفة الزوجة فقر الرجل قبل زواجها منه. والحالة الثانية لايحق للزوجة بالنفقة ان هي لم تنفذ الشروط الضرورية التي هي جوهر الزواج اي التي تتعلق بالنسل والانسجام في الحياة الزوجية أي عندما ترفض الزوجة امتاع زوجها في حقوقه الزوجية أو عندما تهمل اعمال المنزل أو تترك البيت للحاق بعمل يبعدها عن الاهتمام بالزوج وادارة البيت.

ومبدئياً وحسب ذهنية القانون يجب على المرأة ان تكون الحارسة الوفية للمنزل ومع هذا فلها بعض الحقوق كحق الزيارة وحق الخروج من البيت. ويجب ان نذكر ان الفترة التي دُوّن فها القانون الاسلامي كانت عزلة النساء في أوجها وهكذا فانه من الطبيعي ان مشرّع القوانين محمد فرض اولاً مبدأ العزلة أو الانحباس على النساء وانه ثانياً اهتم بأن ينظم الحالات المعينة

التي تسمح للمرأة بالخروج أو استقبال الزيارات. فلها الحق ان تزور اباها وأمها أو ان تستقبلهما مرة في الاسبوع وزيارة الأقارب مرة في السنة. واذا كان لها اطفال من زواج سابق فلها الحق ان تستقبلهم يومياً ان كانوا صغاراً ومرة في الاسبوع ان كانوا كبارا.

لكن الزوجة ليس لها الحق ان تمضي الليلة خارج المنزل دون إذن زوجها.

وعدم مراعاة الواجبات من كلا الطرفين يتطلب تدخل القاضي الذي يتصرف لصالح العائلة ويستطيع ان ظهر له ان الطلاق هو الحل الانسب ان يقضي بذلك.

هذه الدراسة السريعة عن الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين تشير الى ان الرجل ملزم تجاه المرأة بصفتها زوجته وليس كما يقول Milliot "بسبب التمتع أو اللذة التى توفرها وتمدها المرأة لزوجها اثناء فترة الزواج" (١٠) فرغم بصيرة الكاتب إلا انه على الغالب متأثر بالانحياز للفكرة التي تعتبر المرأة المسلمة أداة للعلاقات الجنسية فقط. وعدم دقة هذا التفكير يظهر جلياً عندما نذكر ان الرجل مجبر على نفقة المرأة المطلقة الحامل وليس مجبراً على نفقة المرأة التي تهمل اعمالها المنزلية ركضاً وراء عمل آخر، يبعدها عن البيت. هذا في الوقت الذي يحافظ فيه الزوج على امكانية التمتع بالعلاقات الحميمة مع زوجته.

وهكذا نرى في النظام الاسلامي تفوق ذهنية الزواج وعقلية التناسل التي لا تدهشنا ان اعتبرنا ان جذور الاسلام تغطس في العصور القديمة الأبوية. والمهم ان لانغفل أصل هذه المفاهيم ان اردنا تجنب الوقوع في المبالغات المتطرفة وان اردنا ان نفهم

بشكل أفضل الذهنية التي سنت قانون العائلة.

الطلاق أو فصم العلاقات الزوجية

ان اتهام الاسلام بسهولة فسخ العلاقات الزوجية أصبح من الشيء المألوف أو الأمر الكلاسيكي. وهذا الاتهام – ان دلّ على شيء – فانه يدلُّ على المبالغة والجهل الكبير بتاريخ الاسلام ومؤسسه النبي (صلعم). فمن الخطأ ان يعتقد أحدٌ ان محمداً اعطى الرجل حق طلاق زوجته دون تعريضه للعقوبات. صحيح ان محمداً لم يقرن صيغة الزواج على الطريقة المسيحية وان إله محمد فكر وصاغ العلاقة الزوجية بطريقة اكثر بساطة: "وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً" [(١١)].

هذه هي العقلية التي توصي بعقد أو حّل الزواج. واذا كان قد أعطى الزوج الحق والسلطة بان يطلق زوجته فان محمداً لم ينس ان يمنح الزوجة الحق بان تطلق زوجها في بعض الحالات. واضافة الى ذلك فان النبي ترك للأزواج حرية اضافة شروط معينة في عقد الزواج.

والملاحظ ان الاسلام الذي يقبل أو يجيز حق الزوج بطلاق زوجته أو بالانفصال من جانب واحد – اى من طرف الزوج فانه ايضاً يعترف بالطلاق الناتج عن القبول المتبادل بين الزوجين أو من قبل واحد من الزوجين. وبهذا فان الاسلام حقق تقدماً عن الديانة اليهودية التي منها استوحى الاسلام كثيراً – والتي لاتعرف إلا الطلاق من قبل الزوج.

في أوائل الحقبة الاسلامية كان عقد الزواج محترماً. ولكن فيما بعد أخذ الرجال يبالغون في ممارسة الطلاق. وهذا التطور

هو عكس مانلاحظه عند قدماء اليهود. فالذين درسوا الحياة الاجتماعية عند قدماء اليهود يؤكدون انه في البداية كانوا- يطلقون زوجاتهم دون اجراءات قانونية تقريبا إلا ان الحاخام فيما بعد وضع العراقيل للحد من سهولة الطلاق[١٢]. أما الفقهاء المسلمون فعملوا العكس اي أرخوا رباط الزواج الذي شدّهُ محمد بقوة.

والتقاليد عند قدماء العرب أعطت الحق للزوج ان يطلق متى يشاء. وهذا التقليد كان معمولاً به ايضاً عند قدماء اليهود.

ومن جراء هذا الوضع كانت المرأة تقاسي الكثير من الاجحاف والضرر البليغ. اذ كان - يحدث ان زوجاً قاسياً يطلق زوجته ثم يسترجعها قبل انقضاء المدة الزمنية التي تحررها من سلطته. هذه العملية التي كانت تتكرر باستمرار كانت تمنع المرأة من امكانية الزواج مرة ثانية وجاء الاسلام ليغير ويعدل هذا الوضع بتنظيمه صيغة الطلاق:

"الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان . فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنّا ان يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون"[١٣].

وفي خلال ستة أشهر- مدة اجراء الطلاق - يكون الزوج اثناءه قد فكر واخذ القرار الحاسم والدائم.

ولم يكتف محمد بانشاء المهلة أو الفترة الزمنية التي تتيح المصالحة بين الزوجين ورجوع السلام الى البيت بل وضع العراقيل للطلاق وان سمح به. ولقد تأثر محمد بتقاليد اليهود والمسيحيين اذ كان ينصح اتباعه بان يأخذوا قدوة متانة

العلاقات الزوجية عندهم. فيقول عن اهل الكتاب:

"ان رجل الكتاب – اي المسيحي أو اليهودي يتزوج احياناً امرأة فقيرة فلا يفترقا حتى يفرقهما الموت"(١٤).

وبرغم شرعية الطلاق فانه يبقى "ابغض الحلال عند الله هو الطلاق"(١٥).

وعلى الرغم من كل هذه القيود والاحتياطات، وعلى الرغم من ان الاسلام فرض مهلة زمنية قبل فسخ الزواج وعلى الرغم من المثال الحسن الذي اعطاه محمد فان الوضع العائلي اخذ بالانحلال وتفاقمت الاختلافات والطلاق اصبح شيئا مألوفاً ومتكرراً. فمهلة الستة أشهر التي فرضها محمد لكي يصبح الانفصال او الطلاق قطعياً الغتها القوانين الجديدة التي ألغت اجبارية المهلة وهكذا اصبح الطلاق ساري المفعول بصيغة واحدة – كانت ثلاثة– فما إن ان تقال هذه الصيغة حتى يأخذ الانفصال مفعوله والفقهاء سمحوا به رغم انها تبقى مكروهة(١٦).

وينسب هذا الابتكار إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي لا غرابة فيه حين نذكر ان عمر ساهم اكثر من اي شخص أخر في تطبيق وتطوير عزلة النساء وانه بكلامه؛ تصرفاته وقوانينه حطّ كثيراًمن مكانة المرأة(١٧).

وعلى كل فان الظروف هي ايضاً ساهمت في الحط من شأن المرأة. فانتشار الغزوات وتوسع الفتوحات الاسلامية وتراكم الثراء في ايدي العرب وتجمع أسرى الحرب من جميع الاراضي المحتلة هذا من جهة ومن جهة اخرى ترسخ الدين البطريركي المشجِّع على الزواج وفرض حالة أخلاقية حيث المرأة منعزلة اكثر

واكثر ومنفصلة عن الرجل ومجهولة منه. كل هذه العوامل ساهمت وشجعت على اشباع نزوات الرجل وارتفاع نسبة الطلاق.

بعد هذه البدعة المشؤومة - صرعة الطلاق - التي لم تكن مرفوضة باجماع الفقهاء تميز نوعان من الطلاق: الطلاق الرجعي والطلاق البيّن اي النهائي الذي يحل الزواج دون اية مهلة. ومهما يكن شكل الطلاق فان الزوجة تدخل في عزلة قانونية مدتها ثلاثة أشهر "العدة" والغرض من ذلك التأكد فيما ان كانت الزوجة حاملاً أم لا.

فاذا كان الطلاق رجعياً فان اية علاقة حميمة بين الرجل وزوجته خلال هذه الفترة تعطيها الحق بالرجوع. ونتيجة ذلك يبقى هو السيد المطلق بان يسترجعها وهي تلتحق به مطيعة رغبته. نذكر القارىء هنا بان نفقة المرأة المطلقة في حالة الحمل هي مسؤولية الزوج حتى ولادة الطفل وفترة رضاعته.

والطلاق الذي يهدم العلاقة الزوجية يؤثر ايضا على حق الوراثة ومع هذا فان مشرّع القوانين النبي صلعم باهتمامه بمصلحة المرأة اعطاها حق الوراثة عندما يجرى الطلاق في لحظة مرض الزوج ووفاته. والملاحظ أيضا ان رباط الزواج الذي يلزم الطرفين عند عقده يفقد هذه الخاصية عند انحلاله.

صحيح ان للرجل وحده الحق بان ينطق الطلاق، إلا ان المشرع المسلم يعترف أو يقبل الطلاق بالموافقة المتبادلة وحتى في بعض الحالات يقبل حق المرأة بالمطالبة به.

وفي حالة الطلاق بالموافقة المتبادلة فان الطرفين يتفقان بان يتنازلا عن حقوقهما. وفي بعض الاحيان تعرض المرأة على

زوجها ان يسترجع المهر. وهذا يسمى بطلاق "الكحلة" وهو غير مستحب من قبل الفقهاء[١٨].

وأحياناً لكي تتخلص الزوجة من حياة لاتحتمل مع زوجها تعرض عليه فدية. ولكن اذا كان الزوج لا يقوم بواجباته الزوجية ولايحترم الشروط المتفق عليها في عقد الزواج او اذا كان يوجه بذيء الكلام لزوجته فان المرأة في هذه الحالة تستطيع ان تطلب من القاضي ان يتدخل لكي يعلن الطلاق. وتستطيع المرأة ان تحل زواجها بنفسها دون الاستعانة بالقاضى ان هي اشترطت على حقها في العصمة في عقد الزواج. ولها الحق ايضاً في طلب الطلاق في حالة اصابة الزوج ببعض الامراض أو ان يكون ذا آفة أو علة تبطل الزواج[١٩]. وطبعاً فان نتيجة الطلاق هي حل الرباط الزوجي. فالأزواج الذين يريدون الزواج مرة ثانية عليهم ان يقدموا مهراً جديداً إلا انه في بعض الحالات ليس مضطراً ان يجدد كل شروط الزواج عندما يعقد قرانه من جديد.

المهر - الدوطة

المهر عند المسلمين كما هو معروف - يدفعه الزوج الى المرأة. ومن السابق لأوانه ان نجرب ان نعطى تعريفاً كافياً قبل تقرير مميزاته وتوضيح صورته التاريخية. فان طلبت من رجل قانوني ان يعرّف المهر أجابك بان الزواج هو عقد وان المهر هو عبارة عن تعويض، يقدمه الزوج مقابل شخص المرأة[٢٠] وأما اذا سألت فقيهاً - رجل دين - فيجيب ان الدين يتطلب دفع المهر ليصدق الزواج ويجعله شرعياً[٢١]. أما الاعراف السائدة في مختلف البلاد المسلمة فتقول ان تقديم المهر من قبل الزوج يمثل قيمة

أو أهمية عائلة المرأة المخطوبة.

أما في التاريخ الاسلامي فنرى ان المهر تحوّل إلى رمز بسيط. فما هو المعنى الحقيقى لهذه المؤسسة التي تختلف كثيراً عن المهر الموجود في الأمم الحديثة أو عند الرومان.

فعند العرب قبل الاسلام كان الزوج يدفع المهر الى اب المرأة أو اي مسؤول عنها كثمن لها. وكانت العادة ان اصدقاء واقارب الرجل يقدمون له التهاني بمناسبة ميلاد أنثى، والتي تستطيع فيما بعد ان تكون مصدراً للثراء للأب الذي يقبض هو نفسه المهر وبالتاكيد فان النظام الابوّي كان - يبتهج ويقدر اكثر ولادة ذكر لأن هذا سيكبر لينضّم إلى صفوف المحاربين في القبيلة. ومع هذا فان الأنثى كانت مصدر فرح بسبب المهر الذى يقبضه ابوها عند زواجها.

وجاء الاسلام ليغير هذا النظام. فحافظ محمد على مبدأ المهر المدفوع من قبل الزوج إلا أنه من الآن فصاعداً سيدفع للمرأة وليس لأبيها. فماذا كانت غاية مشرّع القوانين من وراء هذا التغيير؟

في نظر محمد يجب ان يبقى المهر ثمناً للزواج وهذا ما تؤكده الروايات: "فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على ان تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى اذا ندرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه" (٢٢) وينسب الى النبي - وربما على خطأ- فكرة وضع كل المهر في ميراث المرأة بعد اتمام الزواج "وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم إلى بعض - فأتوهن اجورهن" (٢٣).

ففكرة الاتفاق أو العقد واضحة: اي بمقابل الخدمات التى

تقدمها المرأة الى مؤسسة الزواج فان الزوج يدفع المهر كضرورة مقايضة.

إلا ان تصرف محمد الموثوق من صحته في الحادثة التالية يشير ان الغاية النظرية للنبي كانت شيئاً آخر: جاء رجل إلى النبي طالباً منه ان يزوجه بامرأة كان النبي مسؤولاً عنها. فيطلب محمد من الرجل ان يدفع المهر لكن الرجل كان فقيراً جداً "اذهب – قال له محمد واجلب على الاقل خاتماً من حديد" ولكن الرجل ما كان – يملك شيئاً. وهنا قال محمد سائلاً: هل قرأت القرآن؟ نعم اجاب الرجل "حسناً أزوجك بمقابل ما تملكه من القرآن" وتّم الزواج[٢٤].

أن يطلب محمد من الرجل خاتماً من الحديد– اي شيئاً ذا قيمة ضئيلة ليزوجه من امرأة تحت رعايته – فان ذلك يبرهن على ان المهر كان شيئاً شكلياً بالنسبة له لا أكثر ولا أقل. فاثناء حياة محمد وبعد وفاته أيضاً لم يكن للمهر اية صفات أخرى. ويقال انه حتى عمر أراد تحديد قيمة المهر– بما لا يزيد عما يعادل اليوم ٢٠٠ فرنك[٢٥].

هذا الميل لتقليل قيمة المهر –يضر بالوضع الجديد للمرأة اذ هي اصبحت – كما اشرنا سابقاً – سيدة شخصها بنفسها، فلم يعد المهر ملك ابيها بل ملكها. وهكذا فقد الاب اهتمامه بالمهر واصبح همه ان يزوج ابنته ليتخلص من مصاريفها. ورغبة الآباء هذه في التخلص من بناتهم كانت تلاحظ بوضوح عند العرب في وقت محمد – قبل وبعد رسالته –[٢٦] "قالوا انكم قد فرغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن".

فالآباء، غير المبالين بقيمة المهر – لم يترددوا في اغتنام الفرص

لعرض بناتهم للزواج[٢٧] وموقف الخليفة عمر تجاه ابنته يشير إلى ذلك.

والقانون الجديد الذي غير من خاصية المهر وحافظ على نظام تعدد الزوجات والذي اخيراً شجع على الزواج سهّل تأسيس وانتشار العائلة المتعددة الزوجات. هذه المؤسسة تطورت وشملت تقريباً جميع الطبقات الاجتماعية واصبحت عادة متبعة اكثر بكثير من فترة ماقبل الاسلام.

وصحابة النبي صلعم كانوا جميعاً تقريباً متعددي الزوجات ونحن نعتقد ان من بين الاسباب والمؤسسات الاجتماعية التي شجعّت وحافظت على نظام تعدد الزوجات كان خاصية المهر الذى شرعّه محمد والذي لعب دوراً مهما في حياة الناس. فالمهر شغل فكر الحكّام. وهكذا فان محاولة عمر ان يعين الحد الاقصى للمهر طبقت في عهد الامويين: عبد الملك ابن مروان حددها بـ ٤٠٠ درهم اي مايعادل بـ ٢٠٠ فرنك[٢٨].

ولاننسى ان فكرة المهر بنظر محمد كان لها طابعٌ شكلي اكثر من ان تكون ضرورة مقايضة في عقد الزواج.

كما ان فكرة المهر المادية كانت ذات فائدة تاريخية منذ البداية، فالمرأة التي تبدو من وجهة نظرنا العصرية كشريكة نشيطة في عقد الزواج.

ماكانت تستطيع باى شكل من الاشكال ان تهب أو ان تعطى شخصها وخدماتها بدون اي ثمن الى الشريك الاخر أى الزوج. اذ كان يجب على هذا الأخير ان يقدم المهر كضرورة مقايضة. والنبي نفسه عمل بهذا المبدأ وان كان قلّصه إلى أمر شكلي وعندما نبحث عند الفقهاء المسلمين عن تفسير

للتناقض الكائن بين حرية المرأة– مبدئياً – ان تختار من تريد والواقع الاخر الذى لايسمح لها بحرية التصرف بما تملك اي المهر فاننا نجد لديهم الكثير من الاحراج والارتباك. والتفسير الوحيد الذي يقدموه هو ان المرأة كربة بيت وأم لها وظيفة مقدسة وان العناية الالهية التى البست المرأة هذه الميزة، تقضي بان يدفع لها المهر. وخلاصة القول ان اقتضاء المهر أتى من الله فإذن هو مجرد أمر ديني.

لكن هذا المنطق الصوفي لايتجاوب أبداً مع التاريخ والوقائع. وفي الحقيقة ان المهر يظهر لنا في باديء الأمر كتسعيرة ثمن. ثم انحرف في وقت محمد عن معناه واصبح مسألة شكلية. ولكن سرعان ما فرض علماء الدين فيما بعد معنىً جديداً للمهر ومخالفاً لفكرة محمد.

وعلى الرغم من كل المحاولات لتعيين الحد الاقصى للمهر، فاننا نرى ان قيمة المهر ارتفعت ارتفاعاً كبيراً. واتخذ المهر صفة جديدة: إذ لم يعد ملك المرأة كما أراد ذلك النبي وما عاد ايضا من حق عائلة المرأة المخطوبة كما كانت الحالة عند قدماء العرب والمجتمعات البطريركية وأخيراً فقد المهر صفته الدينية الشكلية – اى دون اية قيمة مادية تذكر. فما هي اذن الصفة الجديدة للمهر؟

فرغبة الرجل في ان تشارك زوجته مصاريف البيت الزوجي تتم كالآتي: يدفع الرجل مهراً محترماً حتى يختار زوجته من عائلة مرموقة. وقيمة المهر تقاس بمكانة عائلة الزوجة اي من ناحية النسب والثراء ومركزها الاجتماعي. ومن جهة عائلة الزوجة فان أبويها يقدمان الجهاز والهدايا الكثيرة وهي بالطبع

تنضاف الى المهر وتزيد من قيمته زيادة كبيرة. والزيادة هذه تتجاوب مع رغبة الزوج.

وأعطت العادات السائدة في ذلك العصر صفة اخرى للمهر. فالمهر اصبح وسيلة لشراء رتبة اجتماعية، أو الحصول على الثروة أو مكانة وصفات تتباهى بها العائلة.

وعلى الرغم من كل هذه التقلبات في اسعار ومعاني المهر فانه يبقى في نظر رجال الشريعة كضرورة مقايضة يدفعه الزوج للمرأة التي يختارها كزوجة. وسننظر من وجهة نظر القانون الى مفهوم المهر.

فالمهر بمعناه البدائي هو ملك المرأة المطلق ولها كل الحق في ان تتصرف به كما تشاء، كما لها الحرية ايضا ان تتصرف ببقية ممتلكاتها الشخصية التي لا تدخل في مصاريف أو نفقات المنزل.

وفصل اموال الزوجين هذا ذو علاقة محصورة بنظام تعدد الزوجات المعمول به في القرآن. فمحمد – مشرّع القوانين – ماكان بإستطاعته ان يقبل شيوع الاموال بين الازواج المتعددي الزوجات دون ان يتعارض ذلك مع العدالة والمنطق السليم. ومع هذا فان فصل أموال الزوجين ليس تماما بالأمر المطلق وكذلك فان حرية التصرف في الاموال هي ايضا محدودة.

وفي الواقع ان الزوجين لايستطيعان التصرف بأموالهما بدون مبرر إلا بالثلث فقط مما يملكه كل واحد منهما.

ولايحق لهما تبذير ورثتهما دون ان يكونا مهددين بتدخل الورثة – أى اولادهم – الذين لهم الحق ان يعلنوا أبويهم عاجزين عن ادارة أموالهما. وقانون تحديد حرية التبذير والوقاية ضد

الاسراف سنّه محمد والغاية من ورائه حماية حقوق الورثة في المستقبل.

ونضيف هنا ان الزوجة كما الزوج كل يرث الآخر.

ألا نرى هنا في حق مراقبة كل من الزوجين على ما يملكه الشريك الأخر ميلاً نحو شيوع أموال الزوجين؟

وأخيراً نلاحظ ان المرأة لاتمتلك المهر بعد عقد الزواج. فلها الحق في نصفه أو في قسم منه الذي يجب ان لايكون أقل من المبلغ القانوني – مايساوي خمسة فرنكات. وفي القسم الآخر من المهر فان المرأة لها حق الدين فقط.

وفي حالة تطليق المرأة قبل اتمام الزواج فلها حق نصف المهر المعتمد. واذا تّم الزواج فان للمرأة الحق بأن تطالب بكلية المهر. واذا لم تُعيَّن قيمة المهر فانه يقرر حسب وضع المرأة. وكل هذه الملاحظات هي نقاط قانونية ولن نصرّعليها.

وسلوك المرأة المذنب أو البذيء يمكن ان يبطل حقوقها في المهر وهذا في نظر علماء المسلمين يُفسر اضطرار الزوج الى تطليقها بسبب سلوكها السيء. وسلوكها السيء يشمل حالة ارتدادها– عن دينها– أو ان تكون زانية أو ان تكون حاملاً قبل الزواج. ونلاحظ أيضا انه في حالة عدم دفع الزوج للمهر الذي يجب دفعه قبل اتمام مراسيم الزواج فانه يعطي للمرأة الحق في ان تطلب الطلاق. وهذا الدافع نفسه يعطى للمرأة الحق بان لاتلتزم ببعض القوانين الضرورية في العائلة المثالية – مثل قوانين الزيارة والخروج من البيت.

وفي نفس الوقت تستطيع ان ترفض مصاحبة زوجها في السفر، وان ترفض أيضا العلاقات الجنسية. ورغم كل هذه

الحريات يبقى حق النفقة معمولاً به.

نحن هنا في نهاية مراجعتنا السريعة للوضع القانوني للنساء ويمكننا ان نتساءل ماذا كان –رغم كل الثغرات – تأثيرالنظام التشريعي على انحطاط وضعية النساء؟ ويظهر انه لم يكن كبيراً اذا اعتبرنا ان الفقهاء الاربعة اختلفوا فيما بينهم بخصوص موقفهم المنحاز قليلاً أو كثيراً لصالح المرأة وخاصة عندما نذكر ان محمداً اراد حمايتها وعمل جاهداً ضد العادات السائدة في زمنه. فاعطاها حق الوراثة وشخصية تسمح لها بان تتزوج من تريد وان تنظم حياتها مع زوجها حسب شروطها.

ولكن هذه الاحكام النظرية العطوفة والمتسامحة لم تكن مع الأسف ذات فعالية تستحق الذكر. فالتطبيق وسلوك المجتمع حبّذا عزلة المرأة وإنقاص حقوقها، وتغلّبا في النهاية على نظام محمد.

ومن جهة أخرى فان محمداً باهتمامه بحماية المرأة ورعايتها فانه اعترف ضمنيا بضعفها واعتبرها قاصرة تقريباً. وهذه خاصية كل القوانين الدينية والقديمة.

وبقدرما تفقد الآلهة من سلطتها يختفي معها وينهار تحيّز الامتيازات المرتبطة ببعض الطبقات ويتلاشى التحيز الذي يميز بين الجنسين في النظام القضائي.

الهوامش:

١– تفسير الطبري الجزء ٤ ص ١٩٢ البخاري الجزء ٣ ص ٢٦

٢–المصدر السابق، ص ١٦٨

٣– بول جيد دراسة وضع المرأة ص ٤١٦ باريس

٤– نفس القانون كان موجودا عند الاسرائيليين القدماء.
٥– بول جيد دراسة عن وضع المرأة ص ٤٢٢ باريس
٦– طبقات ابن سعد الجزء ٨ ص ٣٣٤ انظر ايضا صحيح البخاري الجزء ٣ ص ١٣

7- Wellhausen, Nachrichten von der Konglichen Gesellschaft der Wissenschaft en zu Gottingen, 1893, Die Ehe bei den Arabern, p. 432

8- V. Pour le Matriarcat, Roberston Smith, Kinshipund Mariage.

٩– القرآن ٢٨
١٠– صحح مسلم الجزء ١ ص ٤٠٠
١١– صحيح مسلم الجزء ١ ص ٣٤٧
١٢– اطروحة قانونية ص ١٢٥ باريس
١٣– سورة النساء اية ١٢٩
١٤– العائلة عند قدماء الاسرائيليين ص ٢١٣ باريس ١٩٠٥
١٥– من سورة البقرة الآية ٢٢٩
١٦– بخورات الكلام الشيخ حمزة طبعة بولاق ص ٨٧
١٧– الغزالي الجزء الثاني ص ٤٢
١٨– نفس المصدر
١٩– نفس المصدر
٢٠– نفس المصدر
٢١– خليل الجزء ٢ ص ٤٠٤–٤٠٧
٢٢– Milliot اطروحة قانونية ص ١٠٧ باريس
٢٣– Milliot اطروحة قانونية ص ١٧٢ باريس
٢٤– البستاني ترجمة الالياذة ص ٥٥٩ مطبعة الهلال القاهرة ١٩٠٤
٢٥– الغزالي الجزء الثالث ص ٩٣ القاهرة ١٢٨٢
٢٦– تفسير الطبري الجزء ٤ ص ٢٠١
٢٧– صحيح البخاري الثالث ص ٣٧٣
٢٨– حصن الاسوة ص ٤٢

الخاتمة
مكانة المرأة في الأدب - نحو تحرير المرأة

المرأة في الاسطورة اليهودية متهمة بالخطيئة الأولى.

فلقد أغراها الشيطان وهي بدورها أغرت زوجها آدم. أما القرآن فانه نسب الخطيئة إلى الرجل والمرأة بالتساوي. لكن على الرغم من هذا الموقف المماثل للجنسين امام اغراءات ابليس فان إله القرآن صفع المرأة بالدونيّة.

وفيما بعد وعندما احتكت الديانة الاسلامية بالمسيحيين والمجوس فان المعتقدات الدينية والاسطورية لهؤلاء تشعّبت في قماشة الدين الجديد الذي لم يتأخر عن إحيائها تحت الشكل الاسلامي، يقال مثلاً ان موسى - وهو يتحدث مع الشيطان نصحه هذا الاخير بان لايختلي مع امرأة لأن ابليس سيوقعهما في الاغراء [1].

لن نبحث في هذا المضمار عن التأثيرات الدينية الاخرى التي لعبت دوراً في صياغة الدين الاسلامي ولكننا سنذكر بعض الكتاب المهمين في العالم الاسلامي وسنتعرض لآرائهم في موضوع المرأة.

ففي القرن الثاني للهجرة عاش ابن المقفع الكاتب الفارسي الذي اعتنق الاسلام والذي لمع في الادب العربى حتى أنه أعتبر من أحسن الكتاب. قال ابن المقفع ينصح الرجل بمايلى: "ووطن نفسك على انه لاسبيل لك على قطيعة أخيك وان ظهر لك منه ما تكره فانه ليس كالمرأة التي تطلقها اذا شئت [2]".

فابن المقفع عاش في عصر كان الطلاق فيه يمارس باسراف ومبالغة. إلا ان انتاجه الادبي يفيض برحابة الفكر وعقلية منفتحة إلا ان احتقار المرأة المتغلغل في محيطه وتراثه العرفي يسيطر على اعماله كسيطرة العقيدة. يقول: لا شيء اكثر بلاءً للدين، للجسد، للخير، للذكاء - لاشيء يدمر العقل أكثر إلا حب النساء" فالرجل الذي ينغمس في ترف حب النساء هو رجل ضعيف الذهن لا اكثر ولا اقل، وهو يشبه الرجل الجشع النهم الذي لايفكر إلا بلذائذ المائدة.

وفي القرن الثالث للهجرة كان الجاحظ الكاتب المشهور- الذي كان في نفس الوقت يترأس ملّة فلسفية - كان يتكلم عن المرأة باعتدال اكثر وعلى الارجح انه كان متفقاً مع قول القرآن: والرجال قوامون على النساء اذ يقول هو ان "تفوق الرجل على المرأة خارقٌ وان هذا التفوق يسطع في كل الميادين" إلا ان الجاحظ حضّ الرجل على ان يحترم حقوق المرأة لأنه يقول: "وليس ينبغى لمن عظّم حقوق الاباء ان يصد حقوق الأمهات"[٣].

والجاحظ كان بعيداً جداً عن الجمعيات في أيامنا هذه والتي تطالب بتساوي المرأة مع الرجل في كل ميادين الحياة. فهو كان يعتقد ان المرأة يجب ان لا تتحول عن وظيفتها الحقيقية: فرسالتها ان تكون أماً وامرأة. ومع هذا فان الجاحظ انتقد الرجل المتكلف والذي يدّعى العلم اذا ما اهتمّ بأمور هي من اختصاص المرأة مثل موضوع الموسيقى ونستطيع ان نقول بكلمة واحدة ان الفترة الزمنية التي تلت مجيء الاسلام كان همّها الرئيسي ان تنظم حياة المرأة بما يناسب صفة ومصلحة الرجل.

وفي القرن الخامس للهجرة نجد عند الغزالي هذا الصوفي الغريب الاطوار افكاراً مختلفه تهمُ موضوعنا هذا.

فالغزالي، هذا الصوفي الذي تأثر كثيراً بالصوفية المسيحية والذي كان له تأثير كبير على تاريخ الفكر الاسلامي، كانت له افكاره الخاصة بخصوص المرأة. فالمرأة في نظره يجب ان لا تُشغل الرجل بأي حال من الاحوال. وأما الزواج فيجب ان يُقضى عليه لاسباب اقتصادية وصوفية. فالاسباب الاقتصادية مستمدة من وضع المرأة في الاسلام: فالمرأة بوضعها الاجتماعي لاتستطيع كسب قوتها. وهذا الواجب مفروض كليا على الزوج. والغزالى الذي على الأرجح، كان يعتبرالحياة صعبة كان يرى ان المرأة تكلف مبالغ باهظة ولهذا فمن الاحسن ان لايتحمل الرجل مسؤولية هذا العبء(٤).

أما السبب الصوفي فهو ان هم العائلة يمكن ان يصبح أمراً ينهك القلب وكل شيء الذي قد يلهينا عن خدمة الله – ان كان العائلة أو متاع الدنيا أو حتى الاطفال– كل هذه العوامل ما هي إلا مهلكة وذات نحس(٥).

الغزالى، هذا الفقيه والغريب الاطوار الذي أغلق نفسه على عالم الحب ماعدا الحب الصوفي يعلن ان الحمقى فقط قادرون على الحب.

ونظرة الغزالي للحسب تتقارب مع نظرة عالم لاهوتي آخر من القرن الثامن عشر– القس جيرار فيقول هذا الأخير: "ان الحب يُسبّب الكثير من البلاهة عند اكثرية النساء وأما الرجال النوابغ فنادراً مايستسلمون للحب ولكنهم غالباً ما يعطون من أوقات فراغهم لحب عابر فقط.

إلا ان الغزالي ذهب بعيداً وكان أكثر اطلاقية في رفضه للحب من القس جيرار. فهو يقول مثلاً: "فالهوى أو الشهوة، قد تأخذ شكل الحب: اذن هذا الهوى ماهو إلا حاجة جنسية والرجل يجهل ذلك. انه شكل متفاقم بشهية حيوانية لانه، بالاضافة الى ان العاشق هو فريسة عاطفته الجنسية التي هي أشنع واكثر بغضا من كل العواطف فانه اي العاشق يحتاج إلى شخص واحد ليشبع رغباته بينما تعرف الحيوانات ان تشبع رغبتها على الاقل في اي مكان وفي أول مناسبة تُعرض لها."

فالحب ماهو الا عبارة عن هوس أحمق "فالذي يكسر قوة الحب من بدايته يشبه الرجل الذي يمسك بزمام الحيوان في لحظة في طريق ضيق مسدود ولاأسهل من ذلك، أما الذي يبحث عن ان يتخلّص من الحب بعد ان استحوذ عليه فهو يشبه الرجل الذي يترك الحيوان فالتاً في الطريق المسدود ويحاول أن يخرجه بسحبه من ذنبه. الفرق كبير بين الاثنين: رغد في الحالة الأولى وصعوبة في الحالة الثانية[٦]".

وبعد أن يبدي رأيه في المرأة، يتكلم الغزالي كغيره من الكتاب الواعظين القدماء فيخطط لها طريقة سلوك في تنظيم حياتها. يقول الغزالي: "ينبغي على المرأة ان تغلق نفسها في بيتها وان الا تترك منزلها، وعليها ان لا تظهر كثيراً على سطح منزلها وان لايراها الأخرون. وينبغي ان لا تمارس الثرثرة مع الجيران وان لاتزورهم إلا في الوقت المناسب. وان تسهر على راحة زوجها حاضراً أو غائباً وان تبحث عن متعته وسعادته في كل ما تفعل، فلا تخونه بشخصه أو بأملاكه وان لاتخرج من المنزل إلا باذن الزوج. وفي الخارج عليها ان تتصرف بشكل غير منظور. اى ان

تأخذ الشوارع غير المطروقة وتتجنب الطرق المزدحمة وان تنتبه ان لا تعرفها الحارة" (٧).

هذه الأوامر التعسفية والجائرة التي يوجهها الغزالي الصوفي إلى النساء كان لها تأثير كبير على الثقافة الاسلامية.

ويندهش المرء ويغتاظ وهو يقرأ صفحة كهذه في سجل تاريخ الدين الاسلامي، فهي تمثل ادانة للعصر الذي أنبت مثل هذه العقلية ومثل هذه الأفكار.

ولندع الغزالي الكئيب والغريب الطبع ولنسمع ما يقوله كاتب اخلاقي آخر الذي بدوره كان مشهوراً جداً "ابن حزم المؤرخ الاندلسي. في القرن الخامس. يقول ابن حزم في كتابه المشهور "طوق الحمامة".

فابن حزم الذي عاش في مجتمع راق، كان اكثر تحضراً واكثر انسانية من الغزالي. فالغزالي، عن طريق اساتذته، تأثر على الأرجح بالدين المسيحي واحتقر المرأة. أما ابن حزم فانه تأثر باستاذه محمد وخلع عليه الشاعرية. فماذا كان رأيه بالحب؟

"الحب أعزك الله اوله هزل وآخره جد. وليس بمنكر في الديانة ولامحظور في الشريعة اذ القلوب بيد الله" (٨).

ويبحث ابن حزم هذا التقي المتدين، عن سبب صوفي ليفسر الحب فيجده: "والذي اذهب اليه انه اتصال بين اجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع" (٩).

وأما فيما يتعلق بقيمة الحب وأهميته فانه يبالغ بذلك. فبينما يجد الغزالي في الحب نوعاً من العار والحيوانية فان ابن حزم بعكس الغزالي يُعلن بعبارات تشهد تأثره بالمحمدية فيقول: "ولولا ان الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وأمان من

المكاره لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذي لاكدر فيه"[١٠].

فابن حزم المعروف بحساسيته اللافتة للنظر، كما يشهد شعره المؤثر الرقيق، عرف أيضا كيف يُطلق احكاماً حازمة ناتجة عن خبرات شبابه وأن يُعّبر فى ملاحظات رقيقة عن أمور المرأة.

وبصورة عامة، فان المرء يتوهّم المرأة كائناً ضعيفاً أمام إغراءات الحب إلا ان ابن حزم دعم قولاً آخر بان "الرجال والنساء يخضعون بالتساوي امام الحب والعلاقات الجنسية"[١١].

كما انه دافع عن المرأة ضد الافتراء وتلطيخ سمعتها من قبل الذين أرادوا ان – يبقوها في العزلة – اي سجن الرجل – وعلى الرغم من ان ابن حزم تأثر بعصره وتميّز مجتمعه ضد المرأة إلا أنه عرف كيف يكون اكثر عدالة أو على الأقل أقّل تزمتاً وصرامة تجاه النساء من الغزالي، فيلسوف عصر الانحطاط.

والأدب الاسلامي في تطوره التاريخى أذّل أكثر فاكثر المرأة بتحقيرها لنفسها. والدليل على ذلك ان المرء ينذهل ان تابع سيرة تطور الشعر العربي فيجد مثلاً في العصر الوثني تجمع المقاتلين في الليل قرب خيمة في رمال الصحراء وتحت ضوء القمر ومحاطون بدائرة من الفتيات النساء الشابات. كان هؤلاء يغنون احتدام المعارك ويقرضون الشعر في اجواء مرحة وسعيدة. وهذه الأشعار تبدأ عادة ببيت شعر – يُهدى للمرأة التي تستحوذ على قلب الشاعر بعاطفتها أو بايحائها الحب، بجمالها أو اخلاقها النبيلة – هذه المرأة – امرأة المجتمع العربي القديم كانت فخورة وجديرة بان تكون الكائن المحبوب الذي

يوحي بأنبل المشاعر. ولكن فيما بعد، بعد مجيء الاسلام وتفاقم عزلة المرأة أصبح الشعراء يتغزلون بامرأة وهمية يحلمون بها، اي امرأة الازمنة القديمة التي لا يعرفوها. وفي حين ان الشعر الوثني كان مزخرفاً بصور حقيقية للمرأة الجميلة القوية المليئة حيوية وعنفواناً، فان الشعراء المسلمين افتعلوا صوراً وهميّة لامرأة لاوجود لها اذ ان النساء المسلمات ذبلن في حياة بائسة وهزيلة وسرية في عقر بيوتهن.

وتطور الشعر هذا يؤكد أولاً على تقهقر المرأة وإذلالها لانها فقدت مكانتها الحقيقية والحيوية في مضمار الضمير الانساني والوجدان الشعري. ومن جهة ثانية فان الشعر الجنسي أو الغزلي الذي غنّى الحب ونادى به جُرِّد من معناه وحياته لأن المرأة، التي هي عموده الفقري، عزلت وأبعدت من حياة الشعراء بل ومن الحياة نفسها. وتدنّى مستوى الشعر الذي يتغنّى بالمرأة إلى أدب واقعي صلف والذي لايعرف من المرأة إلا جسدها الموصوف بكثير من الصبر والدقة. فكتاب التيجاني المنتشر في المغرب يصف جمال المرأة فقط وكانها خلقت لمتعة الرجل "ان المتعة التي تعطيها المرأة تفوق كل المتع وان الله وضع عشق المرأة فوق بقية العواطف" (١٢).

أما السيوطي، الكاتب المصري الذي عاش في القرن التاسع، والذي كتب في كل ميادين الأدب، هذا السيوطي كتب كتاباً يخجل المرء من قراءته. إذ يصف فيه جسد المرأة ويُشرّحه في علاقاتها الجنسية واشباع الرغبات الجنسية المبتذلة. "وبعد فقد اكثر الناس من التصنيف في فن النكاح ما بين مسهب ومختصر" (١٣).

وأمام مثل هذا الكتاب من الأدب الرخيص لا يسعنُا إلا ان نغلق اعيننا وآذاننا. وهو ان دلّ على شيء فانه يدلُ على اذلال واستعباد المرأة من قبل الرجل، ولنرجع الآن إلى المرأة الجميلة الفاعلة في العصر الوثنى عند العرب.. فالنساء العربيات قبل الاسلام اللواتى طفن الصحراء وسحرن الشبية عند رجوعهم من انتصاراتهم وغنين الاناشيد تكريماً لهم أو تهكّمن من الجبناء بسخريتهن، اللواتي عشن وأحببن. اولئك النساء اللواتي كُن نساء بحق وحقيق فقدن مع الاسلام كل ما كان عندهن من جميل وايجابي أو فعال.

ان تخلّف المرأة المسلمة هو حقيقة لا نزاع فيها. فإلى اي حد يمكن ارجاع ذلك الى الدين ؟ فعامة الناس ينسبون الى الدين أكثر مما يستطيع. فالدين هو نظام عقائدي حيث الفعل لا أهمية له إلا اذا صاحبته آثار اجتماعية أخرى. ويجب البحث عن هذه الأثار في الكل الثقافي الاسلامي. ويجب أيضاً رصد الحياة الاجتماعية الحاضرة في العالم الاسلامى والقاء نظرة على الماضي. ويجب أيضا التمييز بين العصور؛ الاوساط والطبقات المختلفة وحينئذ سنرى بروز عدد من الملامح والنماذج الاجتماعية في مختلف العصور والاوساط والطبقات. فالدين هو عامل من بين عوامل كثيرة وهو ليس بالعامل الرئيسي. ومع ذلك ففيما يخص موضوعنا هذا فالصفحات السابقة أظهرت ان المرأة في القرآن وفي الُسنة تختلف كثيراً عن المرأة في الواقع المعاش. فالحياة العملية أو الممارسة لها قوانينها التي هي أقوى من النظرية. ويمكن القول بان الاسباب المعقدة والمتطلبات الملحة للحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي حسمت التطور

الحقيقى للمرأة المسلمة.

ففي الكل الفوضوي للتقاليد يستطيع الناقد ان يُميز صوتاً رقيقاً متحمسا وانسانيا كان لابد منه للتطور الذي حدث داخل الجزيرة العربية. فبالنسبة للفقيه المؤمن كان ذلك الصوت هو صوت الله الذي ينبغي ان يرّن صداه في الأبدية اللامتناهية. أما بالنسبة للعالم الاجتماعي فانه كلام الانسان الذي يفكر تحت تأثير محيطه ويصوغ قواعده حسب أخلاق وتقاليد عصره. وهذا هوموقف المصلح البارع، الذي يعبر عن موهبة النبي محمد.

ولكن اين نجد الكلام الصالح والمقدس لذلك الرجل الذي كان همه ان يُنظم المجتمع العربي؟ فلا القرآن بشروحه أو تفسيره ولا مجموعة روايات السنة تستطيع دون نقد قاس ان توصلنا إلى ذلك الصوت الذي خنقته الاخطاء التاريخية المتراكمة في تاريخ الاسلام. واذا ما تمّ ذلك النقد نستطيع ان نجد كلمة منبعثة من فكر سليم وحقيقة تفرضها الطبيعة الانسانية وقانوناً تفرضه الضرورات الاجتماعية وحماساً للنظام والجمال والعدالة. فمن هنا نقول انه بامكاننا ان نتوصل إلى سماع ذلك الصوت الواضح لعبقري عربي ألا وهو محمد. وهنا أيضا سيكون الملاذ الاخير للذين يريدون التمسك بالعقائد التي ببقائها راسخة وسط المتغيرات التي يجلبها التطور حتماً، يستطيعون المحافظة على فكرة الثبات الآلهي. وهي فكرة غالية جداً على قلوب المؤمنين.

سوف يأتي اليوم الذي ينشق فيه التراث الاسلامي الى قسمين: قسم قليل سوف يبقى على امد الدهر. وهو يمثل

العقائد التي تشبع الطبيعة الميتافيزيقية ورغبات النفوس الورعة والتقية. وقسم كبير يمثل العادات والتقاليد القديمة، وسوف ينقرض كلياً عندما يدخل التقدم والمؤسسات الجديدة الى البلدان الاسلامية ويحلان محلها.

وعندما تنقرض هذه المؤسسات البالية، فان علماء الاجتماع والفنانين سيجدون في جردها مادة ممتعة للبحث التاريخي.

وحينئذ تصبح مؤسسات الزمن القديم التي مارست في البلاد الاسلامية شريعة الذحل (قانون عقوبة المثل) في حكم المهمل والمنسيّ. أما المؤسسات الاخرى التي هيمنت على الوعي طيلة قرون وقرون فستصبح حينئذ خاضعة للفكر ولتحليل الانسان.

فهكذا نرى قضية المرأة تطرح من جديد وبعيون جديدة بعد ان عانت من الانصراف عنها بسبب آثار التقاليد القديمة والبالية التي ظلت عالقة بها. في مصر والقفقاز وفي الهند؛ تركيا وبلاد شمال افريقيا المتقدمة، كل امريء يشعر الآن باهمية الموضوع ويناقشه مشاركاً في معركة تحرير المرأة. وأما الدين فيتراجع أمام هذه التيارات التحديثية لكي يعتكف في ميدان الشعر والميتافيزيقيا.

فالدين في بداية عهده يشبه الشجرة التي تمدّ ظلالها اكثر فاكثر كلما ازدادت قوة ونمواً. لقد أظلّ دين محمد بظلاله الكثير من المعتقدات المختلفة والظواهر الاجتماعية المتعددة. وقد تدخل اله محمد حتى بتفاصيل حياة البشر! وقد كان الهدف من بحثنا هذا ان نكشف عن تاريخية الظواهر وان نربطها بالعوامل الاجتماعية وان نزيل عنها غبار الزمن المتطاول

والتقديس الذي لا مبرر له. فالفتوحات، ونظام الرقّ، والطبقات الاجتماعية، وتعدد الزوجات، والحكم الاستبدادي، كلها أشياء ساهمت في الانحطاط وتدهور وضع المرأة.

ولكن العوامل الاجتماعية التي لعبت دورها في تزايد انحطاط المرأة هي في طريق الانحلال. والمؤسسة التيوقراطية أو الحاكمة دينياً التي تسيطر وتعتم على الجميع هي أيضا في طريق الزوال. فالتطور المحتم الذي لامفر منه آخذ في التشكل لتحرير المضطهدين. وقريباً فان الصورة العليلة للمرأة المسلمة ستتغيّر وستتحلّى بالعافية والحيوية، عندما تنجح جهود الشبيبة التقدمية باصلاح المجتمع وتنظيفه من التقاليد البالية. وعلى أنقاض المؤسسات المحطمة ستشكل مؤسسات أخرى محافظة على خاصية وطبيعة الشعوب والاوساط الاسلامية. وان تحرير المرأة سيتبع بالضرورة نفس قوانين المؤسسات الجديدة وبعيداً عن تقليد المرأة الاوروبية ستُحرر المرأة المسلمة وستتطور وستأخذ كرامتها وأخيراً حقوقها حسب تاريخ وعبقرية شعبها.

وإذ أتأمل فيما يجري في العالم الاسلامي لايسعني إلا أن أحني الرأس امام ذكرى الكاتب المصرى قاسم أمين الذي بذل حياته في سبيل قضية تحرير المرأة والذي خطفه الموت قبل ان يتمكن من التمتع بنتيجة أعماله: فلنأمل ان تتواصل مسيرة التقدّم لكي تكمل رسالته.

الهوامش:

١ - الغزالي الجزء ٣ ص ٧٣
٢- ابن المقفع اليتيمة ص ٣ مطبعة بيروت
٣- رسائل الجاحظ ص ١٦٨
٤- الغزالي الجزء ٢ ص ٢٢
٥- نفس المصدر ص ٢٣
٦- نفس المصدر الجزء ٣ ص ٧٤
٧- نفس المصدر الجزء ٢ ص ٢٨
٨- طوق الحمامة ابن حزم (مخطوطة غير مرقمة)
٩- نفس المصدر
١٠- نفس المصدر
١١- نفس المصدر
١٢- تحف العروس التيجاني مخطوطة رقم ١٢٦
١٣- الايضاح السيوطي مخطوطة رقم ٦٣٠

خاتمة عامة

بقلم: محمد حربي*

هذا الكتاب ليس مقالة هجائية موجهة ضد وضع المرأة في المجتمعات الاسلامية من أجل إدانته والتشهير به أمام الغرب. وانما هو عبارة عن اطروحة دكتوراة نوقشت في السوربون عام ١٩١٣ في وقت كانت فيه أطروحات الدكتوراة تمثل عملاً علمياً جاداً يتمتع بكل مواصفات الدراسات الاكاديمية الصارمة. وكان يمكن لهذه الاطروحة ان تختفي تحت انقاض الدراسات الجامعية الأخرى، لولا ان حرّاس النظام التقليدي القديم قد هاجموها وصبّوا عليها جام غضبهم. وهم بذلك أشهروها على غير علم منهم، وأتيح لها بالتالي ان ترى النور وتنتشر بين الناس.

في الواقع ان منصور فهمي كان قد تعرّض للهجوم فور عودته الى مصر. فقد شهّر به بعض الصحفيين الذين لا ضمير لهم وحرّضوا عامة الناس عليه لكي ينتقموا منه. ومما يؤسف له ان السلطات الجامعية قد انحنت بكل عار امام هذه الحملات الصحفية الكاذبة، ولم تفعل شيئاً للدفاع عن احد أعضائها: الدكتور منصور فهمي. وقد تمت محاكمته بناء على تقرير لئيم ومغرض يقول ما معناه: ان المدعو منصور فهمي قد ناقش في فرنسا اطروحة دكتوراة مضادة للاسلام ونبيّه، وذلك تحت اشراف "استاذ يهودي" يدعى ليفي برول! وهكذا اضطهد منصور فهمي وأُزيح عن التدريس الجامعي في مصر، ولم يعد الى

الجامعة الا بعد ثورة ١٩١٩. ولكن يمكن القول بانه قد نُسي من قبل الناس ولم يعد موجوداً كمفكر بعد عودته تلك. فقد حطّمته الرقابة الصارمة والضغوط الاجتماعية وقضت على آماله وأحلامه في التقدّم والبحث العلمي. ان من يجهل الاكراهات اليومية الممارسة على الوعي في المجتمعات الاسلامية لا يمكنه ان يفهم مسار منصور فهمي ولا مصيره. والواقع انه تأثر كثيراً من الناحية النفسية بعد ان انكروا عمله واحتقروه ولم تقم له قائمة بعدئذ. نقول ذلك على الرغم من انه كان باحثاً صاعداً يعد بعطاء كبير.

اننا ننبش هذا الكتاب من تحت الانقاض اليوم وننشره باللغة الاصلية التي كتب بها: أي الفرنسية. ولكننا نرفق هذه الطبعة الفرنسية بترجمة عربية سوف تصدر قريباً. اننا ننشره ليس فقط كنموذج على الفكر النقدي المطبّق هنا على وضع النساء المسلمات في المجتمع، وانما نهدف اولاً الى كسر جدار الصمت الذي أحاط به منذ ظهوره. اننا نريد ان نكشف عن مضمونه الحقيقي ونعلنه على الملأ بعد أن طُمس طيلة سبعين سنة! ونحن نهدف من وراء ذلك الى محاربة أعداء الفكر اليوم، أي أحفاد مضطهدي منصور فهمي بالأمس.

ان التاريخ العربي الحديث يتزايد بشكل كمي، كما لو انه على هيئة طبقات جيولوجية متراكمة فوق بعضها البعض، بمعنى انه لم يستطع حتى الآن ان يحقق القفزة النوعية الهائلة الى الامام والتي تجعل كل عودة الى الماضي أو كل انتكاسة أمراً مستحيلاً. ويعود سبب ذلك الى ان نموذج التطور الذي يقدمه لا ينحو باتجاه القيم التحريرية للفرد بقدر ما ينحو باتجاه

الجماعات العضوية التي ينتمي اليها هذا الفرد. ونقصد بالجماعات العضوية هنا: الطائفة الدينية، أو العائلة، أو الحزب، أو العشيرة، الخ... فهذه التشكيلات الجماعية هي التي تتحكم بتربية الفرد وتشكيل شخصيته. وينطبق ذلك على الشخصيات الليبرالية والماركسية ايضاً. وهذا ما يعرقل الحداثة أو التوصل بها الى نهاياتها. هذا هو سبب إجهاض الحداثة.

ان "مسألة المرأة" والعائلة والاخلاق الجنسية هي احدى المسائل الأساسية التي يستخدمها اتباع الماضي اليوم لكي يستعيدوا المواقع التقليدية التي كان جيل كامل من النهضويين قد حاول تدميرها. والنواة الصلبة لهذا النظام القديم تتمثل بنظام الأبوّة البطريركي الذي خلع الاسلام عليه القدسية، ولكنه في الواقع منفصل عن الاسلام أو مستقل عنه، أو حتى سابق له.

كان المفكر المصري قاسم أمين (١٨٦٥–١٩٠٨) قد نشر منذ عام ١٨٩٩ أول كتاب مؤيد لـ«تحرير المرأة». صحيح ان بعض السوريين واللبنانيين كانوا قد سبقوه الى هذا العمل، ولكنه كان أول من أمسك بالمقص الكبير لكي يمزق الحجاب الذي يغلّف النساء العربيات ويمنعهن من رؤية النور. ان منصور فهمي يعترف بديْنه له، ولكنه يذهب بعيداً أكثر في هذا الاتجاه.

اذا ما نظرنا الى الأمور من الناحية التاريخية وجدنا ان الفكر الاصلاحي السائد في نهاية القرن التاسع عشر قد أحسّ بضرورة تحرير النساء من النظام البطريركي المغلّف بقداسة الدين

الاسلامي. ففي مواجهة مخاطر الهيمنة الخارجية المحدقة بالبلاد، راح الاصلاحيون يحاولون جاهدين إعادة تحديد الاسلام واصلاحه لكي يحافظوا على هيمنته على المجتمعات العربية. فقد كانوا يعرفون انه لا يمكن ان يستمر في الهيمنة على العقول اذا ما ظل على حالته التقليدية العتيقة. وهكذا راحت افكارهم تلغم التراث من الداخل لكي تخلق ثغرات جديدة، أو حريات مضادة للحكم الاستبدادي المطلق، ولكن بدون ان يقطعوا مع هيمنة المركزية الاسلامية. وكان ذلك هو ردّهم الدفاعي ضد هيمنة المركزية الاوروبية الوافدة – أو الهاجمة – التي صادرت النزعة الكونية لصالحها، وحاولت تهميش كل الثقافات الأخرى بما فيها الثقافة العربية – الاسلامية.

كان اتجاه النخب الحاكمة أو الطبقات المهيمنة يكمن في إثارة التغيير عن طريق تجديد الدولة من فوق لا عن طريق تحويل المجتمع أو تغييره من تحت. ولهذا السبب رفضت الطبقات الشعبية ان تتبع هذه الحركة وان تتحمل وحدها الانعكاسات الاجتماعية لهذا التقدّم الذي لا مصلحة لها فيه لأن الطبقات القائدة هي وحدها التي تقطف ثماره. فمن المعلوم ان لتحقيق التقدم ثمناً ينبغي دفعه، فلماذا تدفعه الطبقات الشعبية وحدها، في حين ان ثماره ليست لها؟ فالانتقادات التي وجهها ايديولوجيو الطبقات المهيمنة لمجتمعاتهم كانت محصورة بالعادات والتقاليد والأفكار السياسية– الدينية والمؤسسات. ولكنهم لم ينتقدوا القاعدة الاجتماعية – الاقتصادية للعالم القديم، أو لم يجرأوا على الاقتراب منها. ولم يفهم هؤلاء الايديولوجيون ان حيوية الغرب أو نجاحاته

الساطعة ليست نتيجة إحداث ثورة اخلاقية (اي في العادات والتقاليد) لصالح النخبة فقط. فثورة الغرب على ذاته كانت أكبر من ذلك بكثير. وينبغي ان ننظر اليها في كل أبعادها. صحيح انه يمكن للتغيير الاقتصادي ان يفصم عرى العصبيات البدائية العتيقة السائدة في المجتمع منذ قرون وقرون. ولكن هذا التغيير اذا ما ترك لحاله بدون ان يعترف به الفرد وبدون الفصل بين السياسي / والديني وبدون أي ديمقراطية، فانه لا يولّد، الا ردود فعل من نوع ديماغوجي شعبوي (لا شعبي) . وبالتالي فلا ينبغي ان نعلّق كل الآمال على التغيير الاقتصادي كما يفعل بعض الماركسيين الذين فهموا الماركسية من ذنبها. فالتغيير الاقتصادي اساسي، ولكنه لا يكفي لوحده. وانما ينبغي ان يُرفق بتغييرات على مستويات اخرى.

بعد ان ذكّرنا بكل هذه المعطيات يمكننا ان نفهم السياق العام للوضع السائد في العشرينات من هذا القرن: اي في الوقت الذي ظهرت فيه أفكار منصور فهمي وقاسم أمين وغيرهما. فقد شهدت الحركات السلفية والتبجيلية عندئذ صعوداً كبيراً، ووقفت ضد الأفكار الحديثة الوافدة من الغرب ومنعتها من النموّ والترسخ في الأرض. ثم كبحت الصراعات الجدلية الخلاقة التي كانت ستؤدي الى حصول التمايزات الاجتماعية الضرورية بين الزمني / والروحي، أو الدنيوي / والديني. وكان أول ضحايا هؤلاء السلفيين الماضويين على مستوى الأفكار هو قاسم أمين. فقد قام هو الآخر أيضاً بدراسات في فرنسا واطلع على الفكر الحديث. ولكنه كان حذراً جداً، فلم يهاجم في

كتاباته مبادىء الدين ولم يتعرض ابداً لشخص نبيّ الاسلام. وانما اكتفى بصبّ جام غضبه على «رجال الدين» واعتبرهم مسؤولين عن الظلامية والانحطاط. وقد ردّ عليه هؤلاء الصاع صاعين.

وهكذا شقَّت أعماله الطريق نحو المستقبل، ولا تزال كتبه تُقرأ حتى الآن على الرغم من انها تتعرض باستمرار للهجوم الشديد من قبل الاصوليين المتشددين. والحقيقة ان حركة الواقع قد تجاوزت بعدئذ الأفكار التي كان يدافع عنها. فقد حصلت أشياء كثيرة منذ العشرينات وحتى اليوم.

ثم جاء منصور فهمي لكي يخطو خطوة اخرى اضافية في اتجاه التحرر عن طريق معالجته لوضع المرأة في تاريخ الاسلام من وجهة نظر سوسيولوجية محضة. كان منصور فهمي متبنياً كلياً لمنهجية علم الاجتماع ويعتقد انها تؤدي الى الحقيقة. ولذا فان هذا الباحث الاجتماعي المصري، تلميذ دوركهايم، لم يخش السلطات الراسخة، ولم يتراجع عن إعلان النتائج الجريئة التي قادته اليها بحوثه بطبيعة الحال. فبما انه كان مغموساً بالروح النقدية للنهضة، فانه امتلك الجرأة على الكشف عن الحقيقة وعدم احترام اي شيء آخر سواها. ولهذا فان أفكاره بدت شاذة، غريبة صادمة للحساسية ومعادية للتقاليد. في الواقع اننا اذا ما تأملنا في كتابه عن كثب وجدنا انه ناتج عن روح حرة، لا عن انسان مستهتر، وملحد او فاسق. ولكن السلفيين من اتباع التقليد التراثي لا يفرقون بين هاتين الحالتين. وذلك لانه ليس عدم التديُّن هو الذي يخيفهم، وانما عدم احترام المناخ العام الذي يحيط بالتديُّن. ويبدو منصور فهمي في

نظرهم وقحاً لانه يتحدث عن المناخ الديني بطريقة علمية، مباشرة، بسيطة. فهو لا يكتفي فقط بالتحدّث عن النبي كرجل يشبه الرجال الآخرين، وانما يسمح لنفسه بان يحكم عليه وينتقده! فهو يكتب مثلاً: «كان مشروع محمد يشرّع للجميع ويستثني نفسه». وهذه الجملة، وحدها، تحتوي على «هرطقة» مزدوجة. وذلك لانه بالنسبة للارثوذكسية الاسلامية، فان الله وحده هو الذي يشرّع، وليس محمداً. واذا كانت لمحمد بعض الامتيازات الشخصية فان الله هو الذي منحه اياها. وبالتالي فلا داعي للاستغراب، ولا حتى لمجرد التساؤل. ولكن حرّاس الايمان الأشداء وحراس الشريعة لهم ذاكرة قصيرة. فهم يعلمون حق العلم بان عائشة، الزوجة الشابة والمفضلة للنبي والتي ينبغي عليهم ان «يأخذوا عنها نصف دينهم»، قد تجرأت مرة وتهكمت بزوجها عندما بنى مرة أخرى بزوجة جديدة وبارك له القرآن ذلك. قالت له: «يارسول الله ما أرى ربك الا يسارع في هواك! ان الله يسارع لك فيما تريد»... ولم يتوقف النبي عند هذا الكلام، ولا كذلك أحد من بعده.

ان دراسة النبي بصفته شخصية خاضعة للتحليل التاريخي يعني نقض كل البناء الذي قام عليه التشريع الاسلامي: أي نقض الهيبة الدينية نفسها، وكذلك السلطات الدينية من شيوخ وأئمة، الخ... ولكنهم سوف يردون عليك قائلين هذا الكلام الببغائي المشهور: لا كهنوت في الاسلام! الاسلام ليس كالمسيحية. في الاسلام لا توجد طبقة رجال دين ذات مراتبية هرمية كما نلاحظه في الكنيسة الكاثوليكية وبابا روما... ان

القول بانه لا توجد سلطات دينية في الاسلام لانه لا توجد كنيسة هو عبارة عن سفسفطة فارغة من المعنى. انها سفسطة يكذّبها كل تاريخ الاسلام، وكذلك تاريخ الاحداث الجارية حالياً (انظر الحركات الاصولية المعاصرة). فطبقة رجال الدين المدعوة بـ«العلماء» كانت موجودة في الاسلام منذ العصر الأموي، اي منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. ثم تدعّمت اهميتها وقويت في العصر العباسي لكي تصبح مؤسسة رسمية في ظل المماليك والعثمانيين. وهذا الأمر ينطبق على الجهة السنّية. ويمكننا ان نضيف قائلين لمن يرفض وجهة النظر هذه بان السلطة غير المشكّلة رسمياً وبشكل واضح هي أكثر خطورة وقمعاً من السلطة المتشكلة بشكل واضح والتي تخضع لقواعد معروفة ومحددة تماماً (كسلطة الكنيسة الكاثوليكية). واما فيما يخص الشيعة فحدث ولا حرج. فلا أحد يشك في وجود طبقة دينية ذات مراتبية هرمية على غرار الكنيسة الكاثوليكية تقريباً. واذن فعن اي انعدام للكهنوت في الاسلام يتحدثون؟ لقد مارس رجال الدين نفس الضغط على الحريات في الجهة الاسلامية كما في الجهة المسيحية. والتاريخ القريب والبعيد اكبر شاهد على ما نقول.

ربما كان منصور فهمي يعيد الصلة، دون ان يشعر، مع التراث العقلاني لأوائل المعتزلة والكتّاب. نقول ذلك ونحن نعلم ان المعتزلة لم يترددوا، لأسباب دينية، في محاكمة بعض الصحابة بشدة، بل والقول في حقهم كلاماً تصفرّ له وجوه المسلمين اليوم اذا ما سمعوه. يقول الشهرستاني بان زعيم المعتزلة واصل بن عطاء كان يرفض شهادة علي والزبير وطلحة في أية قضية مهما

كانت صغيرة حتى لو كانت الخصومة على حزمة من الخضار!... لماذا؟ لانهم يتحملون مسؤولية كبيرة في أول حرب أهلية جرت بين المسلمين. واما الكتّاب - أي كتاب الدولة الموظفين رسمياً - فقلما أولوا للدين الأهمية التي كان يتخذها في الحياة الاجتماعية. وقد تصرفوا عموماً كأشخاص متحررين ان لم نقل متحلّلين اخلاقياً على الرغم تبحّرهم في العلم. ولم يحترموا فرائض الدين ولم يلزموا أنفسهم بمحظوراته. وانما كانوا يشربون الخمرة ويستمتعون بالملذات كما يشاؤون ويشتهون. وكتب التاريخ والأدب العربي الكلاسيكي اكبر شاهد على ذلك. فهي مليئة باخبار القضاة والوزراء والموظفين ومختلف انواع الكتّاب، وجلسات المنادمة والسهر والحب والشراب... ان النزعة الماضوية والمحافظة جداً للطبقات العربية المهيمنة قد انتقلت الى الطبقات الشعبية الفقيرة والبائسة. وراحت هذه الأخيرة تشعر بالفخر بالماضي المجيد الذي لم يكن ماضيها في أي يوم من الأيام. وانما تم كل ذلك عن طريق العدوى. وهذه الطبقات المسحوقة التي تفتخر بماض ليس ماضيها تئنّ الآن تحت ضغط حاضر يُنتج ضدها. ان هذه النزعة الماضوية المحافظة جداً هي التي تمنع كلتي الطبقتين، المهيمنة والمُهيمن عليها، من ان تريا «العلاقات بين الجنسين» بعيون جديدة، اي بعيون تتلاءم مع عصرنا الحاضر لا مع العصور الغابرة. ولكن الاستلاب في الماضي يظل يقف حجر عثرة امام هذه الرؤيا الجديدة. لنضرب على ذلك مثلاً الجزائر. فمن المعلوم انها البلد الذي شهد الثورة العربية الاكثر تقدماً والأكثر ضخامة واتساعاً. ولكنها للأسف قدمت مثلاً سيئاً

ومتخلفاً فيما يخص تحرير المرأة. فالنساء الجزائريات انخرطن في معركة التحرير مثل الرجال. وكان من المتوقع ان يكون التحرير السياسي للوطن مقدمة للتحرير الاجتماعي للمرأة ولكل الافراد الجزائريين. ولكن النزعة الذكورية المهيمنة لدى قادة التحرير الوطني لجمت تحرير النساء وسجنتهن في قطاعات محصورة، ضيقة، لا يستطعن بعدها التوصل الى المساواة، ولا إلى ممارسة السياسة، ولا الى المناصب السلطوية. واذا ما قرأنا ميثاق الجزائر لعام (١٩٦٤) وجدنا انه يحتوي على شيئين متناقضين تماماً: فهو من جهة ينص على ضرورة تطبيق أحدث النظريات في مجال التطوير الاقتصادي الاشتراكي (نظرية التسيير الذاتي)، وهو من جهة ثانية يحدد للمرأة «دوراً» هامشياً يليق باكثر التشريعات الفقهية تخلفاً وماضويةً...

ينبغي ان نعترف هنا بان أكثر القادة العرب جرأة وتقدماً فيما يخص تحرير المرأة كان الحبيب بورقيبة. ولكن تحرره كله لا يصل الا بالكاد الى مستوى تحرر مثقف ينتمي الى العشرينات او الثلاثينات من هذا القرن: الطاهر الحداد. فعلى الرغم من انه درس في الجامعة التقليدية الشهيرة «الزيتونة» الا انه كان ثورياً انقلابياً. واذا ما نظرنا الى ناحية المشرق وجدنا انه لا عبدالناصر ولا البعث تجرءا على القيام بأي عمل لصالح المرأة. الجميع اتفقوا على تشغيلهن، على إرسالهن الى الحقول والمكاتب والمعامل. ولكن من فكر في إحداث القطيعة مع الماضي والاعتراف لهنّ بحقوقهن؟

ان الآيات القرآنية القليلة التي تنص صراحة على تفوق الرجال على النساء لا تزال تحول دون تحقيق المساواة بين الرجل

والمرأة. ولا أحد يجرؤ على اعادة تأويلها أو تخفيف حدتها عن طريق ربطها بالظروف الاجتماعية - التاريخية التي كانت سائدة في زمن النبي والتي لم تعد سائدة في وقتنا الراهن. وعندما اقول «لا أحد» فاني أقصد «أهل الحل والربط» بالدرجة الأولى. فلو تمت اعادة تأويل هذه الآيات بشكل مرن وناجح لخفّفنا من اطلاقيتها وجعلناها نسبية: اي تتناسب مع الظروف التاريخية والاجتماعية التي نزلت فيها لأول مرة. وإعادة التأويل، أو فتح باب الاجتهاد، شيء مستحب ومسموح في الدين، اللهمّ الا عند المحافظين المتحجرين... وهكذا تتمكن قوى الهيمنة التاريخية من المحافظة على استمرار العبودية حتى داخل اكثر حركات التحرر الوطني راديكالية: الحركة الوطنية الجزائرية. وهكذا تعكس الموازين لصالحها وتؤبّد التخلف مرة اخرى.

نلاحظ في المجتمعات العربية الحالية ان النساء اللواتي يشتغلن يُدفعن بواسطة وضعهن الصعب الى ان يكنّ اكثر تقدماً من الرجال. كما انهن مدفوعات لان ينتهكن الحدود التي فرضت عليهن من قبل السلطة الأبوية (أو البطريركية). فمثلاً نلاحظ في حالات عديدة ان بعض النساء قد ضحَّين بحياتهن الشخصية لكيلا تعيق حياتهن السياسية أو انخراطهن في خدمة الوطن. وبالتالي فانه يحق لهن المطالبة باشياء اكثر من كل الفئات الاجتماعية المقموعة الأخرى. وهذا ما يخيف الرجال الذين هم مستعدون لقمع المجتمع بأسره ووضعه في حالة العبودية من أجل عدم إعطائهن حق المساواة. وربما لجأوا الى فرض قمع جديد كما هو حاصل في أيامنا هذه: قصدت القمع الاصولي. فأخطر شيء يخيف الرجل العربي او

المسلم هو ان تتحرر امرأته. فالمرأة قنبلة موقوتة في نظره. . .

عندما نلقي نظرة تاريخية على المجتمعات الاسلامية نلاحظ ان المرأة كانت اكثر تعرضاً للقمع والعبودية في المدن. فقد كان الوفود الغزير للنساء السبايا (أي الأَمَات) على هذه المدن بعد الفتوح قد قلب بنية المجتمع العربي رأساً على عقب بعد ظهور الاسلام. لماذا؟ لأن وجود المرأة «الحرة» سوف يُنظَّم على أساس انه مضاد لوجود المرأة «العبدة» (أو الجارية كما كانوا يدعونها في اللغة العربية الكلاسيكية). وهكذا راح الرجال يشبعون كل رغباتهم ونزواتهم مع الجارية، واما نساؤهم الحرائر فتنحصر وظيفتهن في انجاب الاطفال. ونلاحظ في المجتمع العباسي ان الجواري كنَّ اكثر ثقافة وحرية من النساء المدعوات حرائر! وكان الرجال يطلبون الجواري، بل ويتهافتون عليهن. هذا فيما يتعلق بالماضي.

ولكن نلاحظ الآن، فيما يخص الحاضر، ان حركة تحرير النساء قد اصبحت تنطلق من المدن. لقد انعكست الآية.

ومن الوهم ان نعتقد بان عدم مصارحة التاريخ او التحايل عليه سوف يؤدي الى تقدم قضية المرأة. فمنصور فهمي يبين بكل وضوح ان «التاريخ وتدهور الديانة الاسلامية» هما اللذان أديا الى خضوع المرأة لعبودية جديدة. ثم يضيف المؤلف قائلاً: «ولكن على الرغم من وضعها الأدنى من الناحية النظرية، فانه كان للمرأة وجودها الخاص بها، وكانت تتكلم، وتفكر، وتتحرك. . . واذا ما قارنا بين وضع المرأة في المجتمع الاسلامي الأولي وبين وضعها في المجتمع الاسلامي المعاصر أدركنا الفرق الشاسع واصابتنا الدهشة حقاً. ويحق لنا ان نردد هنا جملة

الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان التي يقول فيها: «ان المرأة العربية في عهد محمد لا تشبه اطلاقاً هذا الكائن الغبي الذي يملأ حجرات الحريم لدى العثمانيين!». فشتان ما بين البارحة واليوم.

ثم في موازاة كل ذلك يلقي منصور فهمي الأضواء على الدور الهام الذي لعبته التركيبة النفسية الشخصية لمحمد في حسم المصير اللاحق للنساء. يقول: «ساهمت غيرة النبي الزائدة عن الحد في تدهور وضع المرأة المسلمة فيما بعد». فقد كان يغار على نسائه جداً، وبخاصة اذا أحب...

كانت الباحثة الاجتماعية المغربية فاطمة المرنيسي قد أصدرت كتاباً بالفرنسية بعنوان: «الحريم السياسي»، منشورات البان ميشال، ١٩٨٧. بعد ان نقرأ هذا الكتاب نلاحظ ان البعد التاريخي ينقصه على الرغم من جرأة مؤلفته. فهي احدى النساء العربيات أو المسلمات المدافعات عن التحرر والانطلاق. ولكنها لا تأخذ بعين الاعتبار بما فيه الكفاية مسألة المنشأ التاريخي للظاهرة الاسلامية. فتحليلاتها تظل على المستوى التجريدي اللازمني، لكأنها تقف فوق الزمن أو خارج الزمن. كما انها تهمل دراسة البيئة الاجتماعية التي ظهر فيها الدين الاسلامي لأول مرّة ونما وترعرع. وتهمل كذلك تأثير الطموحات الفردية والموقع الاجتماعي للزعماء والصراعات الدائرة بين مختلف المذاهب الاسلامية. وكل ذلك كان له تأثير على مصير الاسلام، وعلى مصير المرأة المسلمة بالتالي. فالتحليل اذا ما بقي على مستوى النص، أي تنظيرياً خالصاً، فانه يفقد الفكر النقدي قيمته، بل ويصبح معديّاً من

قبل وجهة النظر الماضوية أو المحافظة التي ينتقدها. فقد انهمكت المؤلفة في البحث عن حديث تحرري لكي تعارض به الاحاديث غير المؤيدة لتحرر المرأة. واضطرت بالتالي الى تقديس النص وجعله المرجعية العليا المطلقة. وهكذا انتهت الى عكس النتيجة التي تتوخاها. وكل ذلك بسبب النقص المنهجي الذي يعتري كتابها، وبسبب عدم اهتمامها بتطبيق المنهجية التاريخية والمنهجية الاجتماعية على موضوع البحث. فظلت دراستها نظرية تجريدية محضة.

واما منصور فهمي فيتبع مساراً معاكساً تماماً. فهو يبحث عن أصل الأحاديث النبوية (المتعلقة بالمرأة) في المجتمع الاسلامي في القرن الأول للهجرة، وليس في التركيبة النفسية او الاخلاقية لهذا الفرد او ذاك. فالمجتمع هو الأساس وليس الفرد. وهو الذي يوّلد الاحاديث التي تناسبه ويحارب تلك التي لا تناسبه، أو يخفيها ويخجبها، أو لا يعمل بها بكل بساطة. ونفس الشيء يمكن ان يقال عن المؤلفات المغاربية، وبخاصة الاصولية، التي تتحدث عن وضع المرأة انطلاقاً من محاربة الغرب فقط أو كرهاً به. فاذا كان الغرب يعمل كذا فينبغي ان نفعل عكسه... وهذا الموقف لا ينبغي ان نصدقه بكل حرفيته أو على علاته. فهناك آلاف النساء الشابات اللواتي يخرجن من الأوساط الشعبية واللواتي تلقين تربية عربية اكثر مما هي أوروبية، ومع ذلك فهنَّ يناضلن من اجل التحرر دون ان يكون النموذج الغربي - أو الاوروبي - نصب أعينهن. فهن يثرن ضد سلطة الأب أو الأخ أو الزوج أو بكل بساطة على ذلك البوليس الايديولوجي الذي يشكله مفتي التلفزيون أو الراديو، وهو

متلصّص من نوع جديد.

ان مأساة النساء العربيات لاتزال تملأ نشرات الاخبار. ونحن اذ نضطر للرد على أعدائهن ومؤيدي استمرارية عبوديتهن حتى في نهاية هذا القرن العشرين، فان ذلك يدل الى أي مدى تتخبط فيه المجتمعات العربية المعاصرة وأيديولوجيُّوها العتاة. ان مجرد اضطرارنا للرد على مواقع القرون الوسطى في أواخر هذا القرن العشرين يشكل بحدّ ذاته اكبر برهان على مدى التأخر المريع الذي تعاني منه مجتمعاتنا الاسلامية والعربية. فهذه اشياء كان ينبغي ان تكون قد حسمت منذ زمن بعيد. وبالتالي فليسمح لنا القاريء اذا كنا قد استعرضنا هنا، بنوعٍ من النرفزة والغضب، بعض الأفكار التي اصبحت شائعة فيماً يخص تحرر المرأة. وليسمح لنا أيضاً ان نستشهد بكلمة لأدورنو: «ان الفكر ليس وحيداً مع نفسه، وبخاصة الفكر العملي المرتبط جداً بلحظة انبثاقه التاريخية. انه مرتبط بها الى درجة انه يبدو، في فترات التراجع والتقهقهر، تجريدياً وخاطئاً اذا ما أراد ان يتطور طبقاً لديناميكيته الخاصة» . اما نحن من جهتنا فسوف نستمر في محاربة التقهقر والتراجع بحجج معروفة ومستهلكة. فنحن نعيش في هذا الزمن العربي البائس الذي تترك فيه الأنظمة للاصوليين حرية تشكيل الأدمغة والعقول، اقصد الشبيبة. انهم يتصرفون بها كما يشاؤون عن طريق اساليبهم الاقناعية أو الردعية. ثم يطالبون المثقفين بعدم المسّ بالمسألة الدينية، بل ويمارسون عليهم التخويف والارهاب لكيلا يتعرضوا لها. في هذا الزمن البائس والصعب لم يبق للفكر الا المهمة الكنود التالية: تذكير الناس

بما يخفونه عنهم أو بما كانوا قد نسوه. فمهمة الفكر هي التعرية والكشف قبل اي شيء آخر.

باريس ٢٢ يوليو / تموز ١٩٩٠
(ترجمة: هاشم صالح)

* أقتطفت هذه الخاتمة من الطبعة الجديدة لكتاب منصور فهمي (باريس ١٩٩٠) والتي كانت بمثابة مقدمة لها.

الفهرست

اذا ما قارنا بين وضع المرأة في المجتمع الاسلامي الأولي وبين وضعها في المجتمع الاسلامي المعاصر أدركنا الفرق الشاسع واصابتنا الدهشة حقاً. ويحق لنا ان نردد هنا جملة الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان التي يقول فيها: «ان المرأة العربية في عهد محمد (ص) لا تشبه اطلاقاً هذا الكائن الغبي الذي يملأ حجرات الحريم لدى العثمانيين!». فشتان ما بين البارحة واليوم.



منشورات الجمل ١٩٩٧